فن التوقيعات في العصر العباسي الأول
"دراسة موضوعية وفنية "

الدكتور
سعيد أحـــمد غـــــراب
مـــدرس الأدب والنقـــد في الكـــلية

ملخص البحث

التوقيعات فن أدبي نثري، له مذاقه وخصوصيته بين غيره من فنون النثر العربي، وقد ارتبط منذ نشأته الأولى بفن الكتابة العربية، ونما وتطور معها، وأصبح مدينا لها بوجوده، ولعل الذي دفعني إلى هذه الدراسة: أن فن التوقيعات من الفنون التي وقع عليها كثير من الضيم والحيف، إذ لم تحفل بها أقلام الكتاب والباحثين، ولم تعطها حقها من البحث والعرض، كما حفلت بغيرها، وأتاحت لها عديدا من الصفحات في كتبها، وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات، وقد عرضت -خلال هذا البحث- لفن التوقيعات الأدبية في العصر العباسي الأول، وذكرت أنها بدأت في عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) بسبب انتشار فن الكتابة، والعناية بها أكثر من ذي قبل، ثم بدأت تتطور أكثر فيما وليه من عهود، حتى بلغت قمة التألق والازدهار في العصر العباسي الأول، وتضمنت عديدا من الاتجاهات الموضوعية والفنية، مدعمًا ذلك بالشواهد التي قمت بتحليلها، وقد ظهر من خلال البحث: أن التوقيع فن أدبي نثري، له مذاقه وخصوصيته واستقلاله، وأنها لم تعرف في العصر الجاهلي؛ لعدم انتشار الكتابة بينهم، وكذا في صدر الإسلام؛ لقلة من يجيدون الكتابة أيضا، وأنها فن عربي خالص نشأ في رحاب الإسلام، وما ذهب إليه بعض الباحثين من القول بفارسيته غير صحيح ، وأنها لم تقتصر على الأدباء، بل تعدتهم إلى الوزراء والقواد، والكتاب الموهوبين، وأنه لابد

لصاحب التوقيع (الموقِّع) أن يكون موسوما بالفصاحة والبلاغة، والمروءة وقوة الحجة، وليس ضروريًا أن يكون التوقيع الأدبي ابتكارا من صاحبه، فقد يكون آية من القرآن الكريم، أو حديثا نبويا، أو بيتا من الشعر، أو حكمة بالغة، أو مثلا سائرا، أو قولا بليغا، وعلى هذا فقد كان فن التوقيعات في العصر العباسي الأول ثروة عظيمة في المشاركة في بناء الدولة، وفي توجيه سياستها إلى الرعية، كما أنه أفاد التاريخ، وأغناه بكلمات، وعبارات، وأقوال غاية في البلاغة والإيجاز؛ وذلك لارتباطه منذ نشأته بدواوين الخلفاء والوزراء .

الكلمات المفتاحية: (التوقيعات – فن الكتابة – الفن العربي – البلاغة والإيجاز).

abstract

Signatures are a literary art of prose, which has its own taste and privacy among other arts of Arabic prose. grievance and injustice, as the pens of writers and researchers were not full of them, It did not give her her right to research and presentation, as she gravitated to others, and provided her with many pages in her books. This study was based on an introduction, three chapters, and a conclusion, then an index of sources and references, and another of topics. During this research, I presented the art of literary signatures in The first Abbasid era, and stated that it began during the era of the Rightly-Guided Caliphs (ψ) due to the spread of the art of writing, and the care of it more than before, and then it began to develop more in its later eras, until it reached the peak of brilliance and prosperity in the first Abbasid era, and it included many objective trends This was supported by the evidence that I analyzed, and it appeared through the research: The signature is a literary prose art that has its own flavour, privacy and independence, and that it was not known in the pre-Islamic era. Because writing did not spread among them, as well as in the early days of Islam; There are few who are fluent in writing as well, and that it is a pure Arabic art that originated in the domains of Islam, and what some researchers have said about saying in Farsi is incorrect, and that it was not limited to writers, but rather exceeded them to ministers, pimps, and talented writers, and that the signer must (the signer) It should be marked by eloquence, eloquence, chivalry and strength of argument, and it is not necessary for the literary signature to be an invention of its owner. The art of

signatures in the first Abbasid era was a great wealth in participating in the building of the state, and in directing its policy to the subjects. It also benefited history and enriched it with words, phrases, and sayings of eloquence and brevity; This is due to its association since its inception with the offices of the Caliphs and Ministers

Keywords: (signatures- the art of writing- arabic art- Rhetoric and brevity)

□المقدمة

الحمد لله ذي العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ، الذي لا يعجزه شيء ولا يمتنع منه ، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " [1]

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد، النبي الأمي العربي الخاتم – الذي أتم الله به النعمة، وأزال به الغمة، وهدى به شارد الأمة، صلاة دائمة مخلصة، كلما طلعت شمس، أو غربت ...

أما بعد :

فإن التوقيعات فن أدبي نثري، له مذاقه وخصوصيته بين غيره من فنون النثر العربي[2]، وقد ارتبط منذ نشأته الأولى بفن الكتابة العربية ، ونما وتطور معها ، وأصبح مدينا لها بوجوده .

ولعل الذي دفعني إلى هذه الدراسة : أن فن التوقيعات من الفنون التي وقع عليها كثير من الضيم والحيف ، ومُنيت بالظلم على مدار عصور التاريخ الأدبي ؛إذ لم تحفل بها أقلام الكتاب والباحثين، ولم تعطها حقها

---

١ – سورة يس ، آية : ٨٢.

٢- يقصد بالفنون النثرية: الخطابة، والكتابة، والرسائل الديوانية، والرسائل العامة والإخوانية، والمناظرات، والحكم والأمثال ، والتوقيعات، والمقامات والقصة، والنقد الأدبي، وتاريخ الأدب .

من البحث والعرض، كما حفلت بغيرها ، وأتاحت لها عديدا من الصفحات في كتبها .

و آية ذلك : أننا درسنا تاريخ الأدب العربي ... شعره ونثره ، على مدار سنوات الدراسة في الأزهر الشريف معهدا وجامعة، وتخرجنا فيه وكلنا يجهل هذا الفن؛ بسبب الإهمال الذي مُنىَ به ، والتهميش الذي خيم عليه، وحتى من تعرض له من أساتذتنا في التعليم الجامعي، لم يكتب عنه سوى بضع سطور لا تكاد تُبين شيئا عن أصول هذا الفن، أو عن ملامحه الفنية، وبالتالي لم يعره أحد منا اهتماما، بل اعتبرناه من نافلة القول، وسقط المتاع ،لكن الحق الذي يذكر: هو أن هذه السطور القليلة التي كتبها بعض النقاد والباحثين[1]عن هذا الفن ، حين لمعت هنا وهناك ، كانت بمنزلة إشارة قوية إلى العاملين في حقل الأدب توجب عليهم إعادة النظر إلى تقييم هذا اللون الأدبي ، وإعطائه حقه بين غيره من فنون النثر ، لاسيما وقد مرت بنا الأيام ، وطويت بنا السنون ، وقادنا القدر إلى أن نصبح خداما للأدب العربي وتاريخه ، فإن الواجب العلمي يحتم علينا أن نقف مع هذا الفن وقفة أمينة ، نحاول فيها – على قدر جهدنا

---

(١) من هذه الكتابات: التوقيعات الأدبية فن عربي خالص، بقلم الأستاذ/ صلاح عبد الستار الشهاوى، وفن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، للدكتور / محمد بن ناصر الدخيل .

المتواضع – أن نكشف عن وجهه اللثام ، ونزيل عنه الغبار ،ونفند شبهة انحداره من أصل فارسي .

وما تردد هذا القول ، إلا بسبب أننا قلّلنا من شأن هذا الفن ، وغضضنا عنه الطرف ،رغم وفرته وكثرته في كتب التراث العربي ، حتى جاءت أمم غير عربية ، وفرضت علومها وثقافتها على أرضنا ، واختلط الحابل بالنابل ، وخرج علينا من يدعي فارسية هذا الفن ، وعدم نسبته إلى العربية ، كما سيظهر خلال هذه الدراسة .

ولعل ما سبق من القول ، كان سببا قويا يدفعني إلي خوض غمار هذه الدراسة ، والتقلب بين أفيائها ...

وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة ، وثلاثة مباحث ،وخـــاتمة ، ثم فهرس للمصادر والمراجع ، وآخر للموضوعات ...

والله أسأل أن يتقبل عملي هذا ، وأن ينفع به طلاب العلم ، وعشاق المعرفة في كل مكان

وصل اللهم على سيدنا محمد ﴿ﷺ﴾ وعلى آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول
للّه التوقيعات الأدبية .... النشأة والتطورللّه

أولًا: نشأة التوقيعات الأدبية ، وتأكيد أصالتها في العربية :

١ـ التوقيعات وصلتها بالكتابة العربية :

حين تقودنا الرغبة في البحث عن تاريخ فن التوقيعات الأدبية في لغتنا العربية ، نجد أنفسنا مضطرين إلى الحديث الموجز عن نشأة فن الكتابة العربية عند العرب وتطورها ، حتى أصبحت فنا أدبياً خالصاً له أصوله وملامحه ، والسبب في اضطرارنا إلى هذا الحديث : هو ارتباط فن التوقيعات بنشأة الكتابة العربية ، حيث إن التوقيعات فن كتابي ، يعتمد على التدوين ، ولا يعتمد على المشافهة .

وللإشارة إلى ذلك نقول : إن العرب في الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة ، ولكنها لم تكن فناً منتشرا في جميع بلدانهم وبيئاتهم ، بل كان الذين يجيدونها عدداً قليلاَ ، وكانوا يقيمون في المدن والحواضر .

ومن المدن والبيئات التي عرفت الكتابة في لجاهلية : الأنبار ، والحيرة ، ودومة الجندل ، ومكة ، والطائف ، والمدينة ، والشام [١].

ولم يقتصر الأمر على معرفة الكتابة في المدن المذكورة وما ماثلها فقط ، وإنما كانت توجد في الجاهلية مدارس وكتاتيب تتيح للفتيان والفتيات تعلم الكتابة ولكنها بطبيعة الحال كانت في صورة بدائية وساذجة .

وقد حفل الشعر الجاهلي بنصوص عديدة ، تفيد أن عرب الجاهلية كانت لديهم معرفة بالكتابة ، وبأدواتها من أقلام وقراطيس ونحوها .

ومما ورد في هذا الشأن قول المرقِّش الأكبر [٢] .

الدار قـــفرٌ والرســوم كما رقَّـــش في ظـهر الأديم قَلَمْ

ومنه قول امرئ القيس [٣] .

أتتْ حججٌ بعدى عليها فأصبحتْ كخط زبورٍ في مصاحفِ رهبانِ

بل إن أبا هلال العسكري يذكر أن أكثم بن صيفي كان إذا كاتب ملوك الجاهلية ، يقول لكتّابه

"افصلوا بين كل معنى منقض ، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض "[٤] .

وكان هناك عدد قليل من اليهود في المدينة يعرف الكتابة العربية ، إلى جانب معرفته بالعبرية ، وكانوا يقومون بتعليمها الصبيان .

فلما جاء الإسلام ، وأطل على الكون بنوره ، كان من بين الأوس والخزرج عدد من الكُتّاب ، وبعضهم كان يكتب بالعربية والعبرية ، مثل زيد بن ثابت [٥] بل إن الأمر امتَّد إلى بعض النساء ، فكان لبعضهن معرفة بالكتابة ، مثل الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية [٦] من رهط عمر ابن الخطاب ، وكانت كاتبة في الجاهلية ، وعلّمت حفصة زوج النبي ﷺ الكتابة بأمر منه .....فأصبحت حفصة كاتبة [٧] .

وقد ذكر البلاذري عدداً من النساء الكاتبات ، منهن : أم كلثوم بنت عقبة [٨] وعائشة بنت سعد [٩] وكريمة بنت المقداد [١٠] .

وكانت عائشة -رضي الله عنها- تقرأ في المصحف ولا تكتب ، وكانت أم سلمة زوج النبيﷺ
تقرأ أيضاً ولا تكتب [١١] .

ولما انتشرت ظلال الإسلام في أماكن عديدة، ورفرفت رايته فوق بقاع شتى، ظهر عدد لا بأس به من الكتاب المعروفين في الحواضر والمدن، ولا سيما مكة والمدينة .

ويذكر البلاذري [١٢]، وابن عبد ربه [١٣] وغيرهما: أنه كان في مكة وقت دخول الإسلام سبعة عشر رجلاً يجيدون الكتابة .

وهو عددٌ لا بأس به في هذا الزمن، لاسيما وأن أعداد الناس كانت قليلة ، كما أنه أمكن تنمية هذا العدد ، من خلال حث الرسول ﴿ﷺ﴾ على تعلم القراءة والكتابة .

والعرب في الجاهلية ، كانوا مثل غيرهم من الأمم في حاجة ماسة إلى معرفة الكتابة ؛ لتدوين كتبهم الدينية، وإثبات شروطهم ، وعقودهم في معاملاتهم التجارية ، وتنظيم شئون حياتهم [١٤] ويذهب بعض من الباحثين : إلى أن بعض شعراء الجاهلية ، كانوا يحرصون على تقييد أشعارهم كتابة [١٥] .

وبناء على ما تقدم ، نستطيع أن نقول : إن الكتابة كانت معروفة بقلةٍ في العصر الجاهلي ، أما في صدر الإسلام فلا يجادل أحد في معرفتها وانتشارها ، والحرص على تعلمها ، والإقبال على الحذق فيها ، وقد

اعتمد عليها الرسـول (ﷺ) والخلفـاء الراشـدون مـن بعـده ، في تبليـغ أوامرهم وتوجيهاتهم إلى الولاة ، والقـادة ، والقضـاة في أركـان الدولـة الإسلامية الواسعة ، واضطر الخلفاء والأمراء والولاة إلى الكتابة برأيهم على ما يرفع إليهم من مظالم ومطالب ، وبذلك مهد ازدهار الكتابـة إلى نشأة التوقيعات في وقت مبكر من ميلاد الدولة الإسلامية ، وقد جسّدت هذه النشأة إرهاصاً قوياً لبدايـة انطـــلاقها في العـــصر الأمـوي ، ثـم لوصولها إلى ذروة الشموخ والتألق في العصر العباسي الأول .

فالتوقيعات إذن : فن أدبى نثرى نشأ في أحضان الكتابة العربية ، وارتبط بها ، حتى قوى واشتدَّ عوده في الدولة العباسّية الفتية .

ومن هنا ، ففن التوقيعات مدينٌ للكتابة العربية بكثير مـن الفضـل ، حيث إنها كانت أداته ووسيلته إلى الظهور، فلولاها ما وجد، ولا عرف، ولا أثبت لنفسه مكاناً بين الفنون الأدبية، لا سيما وأنه لا يكون إلا كتابة وتدويناً .

٢ـ أصالة فن التوقيعات في العربية :

اختلـف بعـض النقـاد والبـاحثين منـذ زمـن بعيـد حـول أصـالة فـن التوقيعات، أهو عربي أم فارسي؟ حيث قال بعضهم بفارستيه [١٦] ولعل الذى دفعهم إلى القول بفارسية هذا الفن : أن هذا اللون من الفنون قـد انتشر في العصر العباسي ذي الطابع الفارسي في كل شيء

ولعل الذي عزز هذا الاعتقاد لدى بعض النقاد: أن ديوان الخراج كان يكتب بالفـــارسية في العراق، وبالرومية في الشام ، والذين كانوا يتولونه من الموالي من الفرس والروم [١٧] .

وقد كان ذلك قبل تعريب الدواوين في العصر الأموي ، وقبل أن تتحول أقاليم: العراق، والشام، ومصر إلى العربية الشاملة ، وهو ما يعرف بتعريب الأقاليم .

ومما عزز ذلك أيضاً: نبوغ أسرة البرامكة [١٨] في كتابة التوقيعات، حيث إنهم كانوا يعملون في ديوان الخلافة ، وعمدوا في كتابتهم إلى لون من الاختصار والإيجاز الشديد.

وقد نسب إلى يحيى بن خالد البرمكي: أنه كان يوصى الكتّاب بقوله: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعاتٍ، فافعلوا [١٩] .

ونعجب حين نرى بعض نقاد الأدب العربي المحدثين يجرى مع هذه الموجة ، فيزعم أن البرامكة هم الذين أنشأوا ما يسمى بفن التوقيعات[٢٠].

ولعل هذه الأسباب ، مضافاً إليها بعض الآراء المؤيدة لفارسية هذا الفن ، هي ما دفعت كثيراً من الباحثين إلى الاعتقاد بأن أصل فن التوقيعات فارسي .

ولعل الباحث الأمين إذا رجع إلى كتب التراث العربي الأصيل، وأجال فيها الطرف، سوف يقع على فيض زاخر من توقيعات رجال العربية

الأفذاذ على مدار الأزمنة، مما يحتم القول بعربية هذا الفن وأصالته، فأدبنا العربي يحظى بخصائص كثيرة من حيث الأساليب البيانية المتنوعة- والتي قلما يحظى بها أدب آخر من الآداب القديمة أو الحية -

ومن هذه الأساليب الأدبية: التوقيعات التي أصبحت فناً أصيلاً من فنونه[٢١]

ونخلص مما سبق إلى فن التوقيعات فن أدب أدبى نثرى نشأ في أحضان الكتابة العربية، وفي ظل الدولة الإسلامية منذ العهد النبوي، ففي عصر النبوة، وقبل أن يتأثر المسلمون بالحضارة الفارسية، احتفظت بعض الكتب الأدبية في بطونها ببعض التوقيعات البليغة، التي تنسب لبعض القادة والمسئولين في تلك الفترة المتقدمة، حيث يُذكر أن ‹شرحبيل بن حسنة› أحد كتّاب النبي ﴿ﷺ﴾ كان يكتب التوقيعات إلى الملوك [٢٢] .

فالتوقيعات: فن عربي خالص، وتوقيعات الخلفاء الراشدين، وخلفاء بنى أمية، تؤكد أصالة عربيتها، وأنها انبعثت من الصدور العربية؛ لأنها من ضرورات الملك، والتوسع في العمران، فضلاً عن طابعها الموجز الذى هو من سمات الأساليب العربية ...

ثانياً : التوقيعات الأدبية .... المفهوم وتطور الدلالة :

١ـ المفهوم اللغوي للكلمة :

وردت مادة " وقع " في معاجم اللغة العربية تحمل عديداً من المعاني اللغوية ، وسوف نقتصر – هنا – على ذكر المعاني التي لها ارتباط بالمعنى الاصطلاحي لكلمة " التوقيعات " وهي كالآتي : .

١ـ التوقيع بمعنى : التأثير :

وقد جاء عند العرب: بعير موقَّع الظهر، أي : به آثار الدَّبَر، وهي قروح تصيب الإبل في ظهورها من جراء الحمل . ويقولون: وقع الكلام في نفسه، أي : أثَّر فيها [٢٣] .

٢ – التوقيع بمعنى : الوقوع والحصول :

وذلك لأن التوقيع سبب في وقوع الأمر الذى تضمنه ، أو لأنه إيقاع الشيء المكتوب في الخطاب أو الطلب، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه [٢٤] .

٣ـ التوقيع بمعنى: الإضافة إلى الشيء :

جاء في اللسان: التوقيع في الكتاب: إلحاق ‹ إضافة › شيء فيه بعد الفراغ منه، وقيل: أن يُجمل الكاتب بين تضاعيف سطور الكتاب مقاصد الحاجة، ويحذف الفضول [٢٥] .

٤ – التوقيع بمعنى : الإصابة :

جاء في اللسان: وقع المطر ببعض الأرض دون بعضها، أي: أصاب بعضاً منها دون الآخر [٢٦] فالمعاني الأربعة التي وردت في المعاجم اللغوية، وهي: التأثير، والوقوع، والإلحاق والإصابة، كلها تتعاون وتتآزر وتتفق مع المعنى الاصطلاحي المراد من التوقيعات

وبيان ذلك: أن معنى التأثير الذى هو أثر في ظهر البعير، متحقق في معنى التوقيع الاصطلاحي؛ ذلك لأنَّ الموقع يؤثر في الكتاب الذى وقّع فيه حسًّا أو معنى .

وأن معنـى الوقـوع والحصـول، متحقـق في معنـى التوقيـع الاصطلاحي؛ لأن التوقيع سبب في وقوع الأمر وحصوله .

وكـذلك معنـى الإضـافة أو الإلحـاق ، متحقـق في معنـى التوقيـع الاصـطلاحي؛ لأن الكاتـب بعـد الفـراغ مـن قـراءة المكتـوب، يضـيف ويُلحق في ذيله توقيعاً يجمل فيه حكمه، أو قضاءه في القضيّة.

وكـذلك الحـال في معنـى الإصـابة، متحقـق – أيضـاً – في المعنـى الاصـطلاحي للتوقيـع؛ ذلـك أن الموقّـع يقـرأ المكتـوب، ويحـذف منـه الفضول ، ثم يوقـع بـما يـراه، وبـذلك يكـون توقيعـه قـد أصـاب بعـض المكتوب دون بعضه المحذوف .

وبذلك يظهر مـدى الارتبـاط القـوى بـين المعنـى اللغـوي، والمعنـى الاصطلاحي لكلمة التوقيعات، وهو ما يشى من طرف خفي – في رأيي – بعروبة هذا الفنّ وأصالته أيضا

٢ـ المفهـوم الاصطلاحي للكلمة:

أشرنا – فيما مضى – إلى المعاني اللغوية التي دلت عليها كلمة " التوقيع " وجدير بالذكر أنَّ نذكر هنا أن هـذه المعـاني قـد تطـورت في ظـل الدولـة الإسلامية ، واكتسبت معنـى اصـطلاحياً لا يتنـافر مـع المعـاني اللغويـة السابقة، وإنما يتعانق ويتفق معها، ويرتبط بها .

وسوف أذكر – هنا – تعريف التوقيعات كما وردت عند نقادنا القدامى والمحدثين :

- **يقول قدامة** (ت ٣٣٧ هـ) معرفاً التوقيعات [٢٧]: هي تعليقات الوزراء والرؤساء على ما يُرفع إليهم من الرسائل والقصص [٢٨] .
- **وعرفها البطليوسي** (ت ٥٢١هـ) بقوله: وأما التوقيع، فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك ، أو من له أمر أو نهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو علفي عرضه بإيجاب ما يُسأل أو منعه ، كقول الملك : ينفذ هـــذا إن شاء الله ، أو هذا صحيح [٢٩] .
- وعرفها **ابن خلدون** (ت٨٠٨ هـ) بقوله: التوقيع هو أن يجلس الكاتب بين يدى السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه [٣٠] .

وبالتأمل في هذه التعريفات، نجد أن تعريف قدامة بن جعفر أوجزها جميعاً، وأقربها من مقصود الكلام ،وإن أخذ عليه عدم دقته في تحديد ما إذا كان التوقيع مكتوباً أو شفهياً؛ لأنه سبق أن عرفنا أن التوقيع لا يكون إلا كتابة وتدوينا ...

أما تعريف البطليوسي، فيؤخذ عليه التطويل وإن كان لم يخلُ من فائدة، حيث أضاف شيئاً جديداً، وهو أن التوقيع كما يكون في أسفل الرسالة المرفوعة، يكون في وسطها، أو على ظهرها أيضاً .

وفي تعريف ابن خلدون، ما يشي بكون الكاتب مجرد أداة توقيعٍ بأوامر السلطان فقط، ونحن نعلم أن الأمر كان يتسع لأكثر من ذلك،

حيث كان بعض الكتاب ينفرد في أحيان كثيرة بالتوقيع بما يراه، كما كان يفعل يحيى البرمكي وأبناؤه .

وفي التعريف – أيضاً – إشارة إلى أن التوقيع لابد أن يتوفر فيه وصف الإيجاز والبلاغة، كما سنتكلم عن ذلك في موضعه من البحث إن شاء الله .

– ويجتهد بعض الباحثين في العصر الحديث، فيعرف التوقيع بأنه : كلام بليغ موجز يكتبه الخليفة أو ولى الأمر في أسفل الكتب الواردة إليه، المتضمنة لشكوى، أو رجاء، أو طلب إبداء الرأي في أمر من أمور العامة أو الخاصة [٣١] .

وهو تعريف دقيق جامع ، حيث استطاع أن يحصر كلّ الجزيئات التي تتعلق بمفهوم التوقيعات ، دون إطالة أو إخلال .

٣ – تطور دلالة الكلمة :

مر بنا الحديث عن المفهوم اللغوي لكلمة التوقيعات، وكذا الحديث عن مفهومها في اصطلاح الأدباء، ونلحظ أن هذا المفهوم قد تطور، واكتسب معاني جديدة – من عص إلى عصر وهذه المعاني الجديدة لا تلغى المعنى الأول لها، وإنما تضاف إليه .

ففي العصر العباسي: اكتسبت الكلمة معنى أدبياً، فأصبحت تطلق على الأقوال البليغة الموجز المعبرة التي يكتبها المسئول في الدولة أو كاتبه

على ما يرفع إليه من شكايات، متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو كل قضية أو مشكلة .

وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في وقتنا الحاضر .

وفي العصور الوسطى، أضيف إلى التوقيعات دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصر العباسي، حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعيين والٍ، أو أمير، أو وزير، أو قاضٍ، أو حتى مدرس، وامتازت بطولها، و الإسهاب في ذكر الحيثيات المسوغة للتعيين، حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، وقد أورد القلقشندي في صبح الأعشى نماذج كثيرة منها [٣٢] .

وهي بهذا المفهوم، لا تعد توقيعات أدبية؛ لافتقادها عنصري الإيجاز والبلاغة، وإنما هي كتابة ديوانية .

ثم تحول معنى التوقيعات – بعد ذلك – إلى علامة اسم السلطان التي تُذَيَّل بها الأوامر والمراسيم، والصكوك، كالإمضاء ‹ كتابة الاسم› في هذه الأيام، ثم توسع في معناها فأصبحت تدل على تأشيرة الاسم وهي ما تسمى بـ ‹الفورمة › وهي كتابته بتلك الهيئة الخاصة التي تعود عليها كل مثقف .

ثالثاً : مصادر التوقيعات الأدبية وأنواعها ومواصفاتها :

١ـ مصادر التوقيعات الأدبية في التراث العربي :

حـين يـروم الباحـث في مجـال الأدب العـربي أن يقـف عـلى مصـادر التوقيعات الأدبية في مختلف العصور، يجد في هذا العمل صعوبة ومشقة ، ولعل وجه الصعوبة والمشقة في هذا العمل : يكمن في أن التوقيعات من الفنون الأدبية التي ظلمت كثيراً ،حيث جاءت مبثوثة متفرقة في بطون أمهات الكتب ولم يجمعها كتاب متخصص، ولم يفردها أحد – على حد علمي– بالدراسة والاستقصاء، ومن هنا : فعلى من يتصدى لخوص غمار هذه المهمة، أن يتسلح بالصبر الجميل؛ ليكون ذلك معواناً له على المضي قدماً في هذا الطريق .

ويكفي – في هذا المقام – أن أذكر بعض المصادر الأدبية المهمة ، التي تعرضت لهذا الفن ، ودونت أطيافاً منه بين طياتها، والتي منها :

١ـ **العقد الفريد** ، لأبى عمر أحمد بن عبدربه الأندلسي ، المتوفي (٣٢٧ هـ).

وحين نجيل الطرف بين صفحات هذا الكتاب، نجـــد اهتماماً ملحوظاً من مؤلفه بفن التوقيعات، حيث أورد قدراً كبيراً منها، موزعة بين الخلفاء الراشدين في عصر صدر الإسلام، بدءا من الخليفة عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ ،وكذلك الحال في العصر الأموي، والعصر العباسي، كما شفع ذلك بذكر طوائف كثيرة منها لبعض الأمراء، والولاة، والقادة ، والكتاب، والمشهورين من رجال الدولة مثل: الحجاج، وأبى مسلم الخراساني، وجعفر بن يحيى، والفضل بن يحيى، والحسن ابن سهل،

وأخيه الفضل بن سهل، وطاهر بن الحسين، بل إنه ذكر توقيعات كثيرة لبعض ملوك الفرس .

٢ـ **نقد النثر** ، المنسوب لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، المتوفي (٣٣٧) ه .

وقد أوجز القول فيه عن التوقيعات وطواه في بضع سطور، ذكر خلالها مفهوم التوقيعات، ثم شفع ذلك بذكر عدد منها لبعض رجال الدولة العباسيين من خلفاء ووزراء وقادة وكتاب ، ثم ألمح إلى أن هذا الفن باب واسع ومتفرق، وذلك حين ختم كلامه بقوله: وإن رمنا أن نأتي بكل ما سمعناه في هذا الباب من مختصر الدعاء والوصايا، وقصير التوقيعات .... طال علينا وشغلنا عما إليه أجرينا [٣٣]، وإنما ذكرنا مثالاً يحتذى عليه اللبيب، ويستن [٣٤] به الأديب [٣٥] .

٣ ـ **كتاب الوزراء والكتاب**، لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، المتوفي سنة ٣٣١ه

وهو أحد المصادر الأدبية الغنية بمادتها العلمية، وقد أورد فيه مؤلفه أطيافاً رائعة من التوقيعات لعدد من المشاهير والرواد [٣٦] .

٤ – **نثر الدر**، لأبى سعد منصور بن الحسين الآبي، المتوفي ٤٢١ه، وقد أورد بعضاً من التوقيعات في أماكن متفرقة منه [٣٧].

٥ – **أدب الكاتب**، لأبى بكر محمد بن يحيى الصولي، المتوفي ٣٣٥ه أو ٣٣٦ ه، وقد أورد فيه عدداً منها أيضاً [٣٨]

٦- **خـاص الخـاص** ، لعبـد الملـك بـن محمـد بـن إسـماعيل أبي منصـور الثعالبي، المتوفي ٤٢٩ه .

ويعـد هـذا الكتـاب مـن أهـم كتـب الثعـالبي التـي اهـتم فيهـا بتـدوين التوقيعات، وعلى الرغم من صغره ، فإنه يعد من أهم مصادر التوقيعات الأدبية في مراحل الدولة الإسلامية المتعاقبة، بل إنَّ الثعـالبَّي زاد فـأورد عدداً كبيراً مـن توقيعـات الملـوك المتقـدمين، مثـل الإسـكندر المقـدوني، وبعض ملوك الفرس والروم .

٧- **لطائف اللطف، وتحفة الوزراء** ،وهمـا للثعـالبي أيضـاً ، وقـد أورد فيهما عدداً قليلاً من التوقيعات [٣٩] .

٨ – **الاقتضاب في شـرح أدب الكتـاب**، لأبـى محمـد عبـد الله بـن محمـد البطليوسي، المتوفي ٥٢١ه، وقد وردت فيه توقيعات قليلة، إلا أنه مصدر مهم من مصادر التوقيعات الأدبية على كل حال [٤٠] .

٩- **جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهـرة**، لمؤلفـه: أحمـد زكـى صفوت، وهو من أهم الكتب الأدبية الحديثة التـي عنيـت بالتوقيعـات عناية كبيرة ، حيث ذكر مؤلفه في الجزء الأول من كتابه عـدداً كبـيراً مـن توقيعات الخلفاء الراشدين، ثم أردف ذلك بذكر عدد كبير منها في الجزء الثالث لعدد من خلفاء بنى أمية، وولاتهم، ومن اتصل بهـم، وفي الجـزء الرابع، حشد المؤلف توقيعات كثيرة لخلفاء ووزراء وكتاب وقواد العصر العباسي الأول [٤١] وهي في جملتها تفوق كل مـا جمعـه مـن توقيعـات في

الجزئيين: الأول، والثاني، وفي ذلك إشارة غير خافية إلى رواج هذا الفن وازدهاره في العصر العباسي، ووصوله فيه إلى ذروة الإشراق والتألق .

وبذلك نكون قد وقفنا على أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في جمع التوقيعات الأدبية في مختلف العصور التاريخية ،وهذا – بالضرورة – لا ينفي وجود كتب أخرى تحتوى على بعض التوقيعات المتفرقة ، ولكن ما ذكرته هو أهمها، وأولاها، والمعول عليه في هذا الشأن .

٢- أنواع التوقيعات :

بعد أن تحدثنا عن مصادر التوقيعات الأدبية في التراث العربي ، يجدر بنا –هنا – أن نتعرف على أنواعها ، وهي أنواع عديدة، جادت بها الطبائع والقرائح ، ولا تكاد تخرج عن الآتي :

١- قد يكون توقيع الخليفة أو الوزير أو الكاتب آية من القرآن الكريم ، تناسب الموضوع الذى تضمنه الطلب .

من ذلك أن يحيى البرمكي كتب إلى هارون الرشيد، وهو بالسجن يستعطفه: من عبد أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله رفيقه، ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان، فأصبح في الضيق بعد السعة، وعالج البؤس بعد الدعة ..... إلى قوله : فمن مثلى الخطأ، ومن مثلك الإقالة، مد الله عمرك، وجعل يومي قبل يومك، والسلام .

فلما قرأ الرشيد الخطاب وقع في أسفله بهذه الآية الكريمة : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٤٢).

٢ – وقد يكون التوقيع من الخليفة أو غيره حديثا نبويا :

– ومن ذلك : وما وقع به المنصور في رقعة رجل من العامة يطلب فيها بناء مسجد في محلّته ، فوقع له: " إن من أشراط الساعة : أن تكثر المساجد ، فزد في خطاك ، يزد في أجرك "(٤٣).

فهذا التوقيع مأخوذ من حديث الرسول ﴿ﷺ﴾: **لله**إن من أشراط الساعة كثرة المساجد ، فزد في خطاك ، تزدد من الثواب " كما ورد في رواية الطبري (٤٤) .

– ومن ذلك : ما وقع المنصور به – أيضاً – إلى أهل الكوفة ، وقد شكوا عاملهم : كما تكونون يؤمر عليكم .

– فهذا التوقيع مأخوذ من قول النبي ﴿ﷺ﴾ : " كما تكونوا يولى عليكم " (٤٥).

٣ـ وقد يكون التوقيع بيتا من الشعر :

ومن ذلك (٤٦) : ما كتب به قتيبة بن مسلم الباهلي إلى سليمان بن عبدالله بن مروان الخليفة الأموي يتهدده بالخلع ، فوقع سليمان في كتابه :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربَعُ(٤٧)

وقد يكون بيت الشعر جزءاً من التوقيع .

– ومن ذلك : ما كتب به عبد الله بن طاهر إلى المأمون يشكو بعده عن حضرته ،ويسأله الإذن له في الإلمام بها ، فوقع المأمون في كتابه : قربك يا أبا العباس حبيب ، وأنت من قلبي حيث تكون قريب، وإنما بّعدت دارك نظراً بك ، ورغبة إليك ، كما قال الشاعر :

رأيت دنّو الدار ليس بنافع إذا كان ما بين القلوب بعيد (٤٨)

٤ـ وقد يكون التوقيع مثلاً سائراً :

– ومن ذلك : ما وقع به الإمام على بن أبى طالب ﴿رضي الله عنه﴾ إلى طلحة بن عبيد الله ﴿رضي الله عنه﴾ :

" في بيته يؤتى الحكم " (٤٩) .

– ووقع الرشيد إلى صاحب خراسان في أمرٍ بلغه " داو جُرحك لا يتسع "(٥٠) .

٥ـ وقد يكون التوقيع حكمةً بالغة :

– ومن ذلك : ما وقع به أبو العباس السفاح ، خليفة بنى العباس الأول ، في رقعة قوم شكوا احتباس أرزاقهم : " من صبر في الشدة ، شارك في النعمة "(٥١) .

– ولعل منه : ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي ، في قصة متنصح : بعض الصدق قبيح(٥٢) .

٦ـ وقد يكون التوقيع قولا بليغا مؤثرا :

– ومن ذلك : ما كتبه المهدى إلى صاحب خراسان في أمر جاءه : أنا ساهر وأنت نائم (٥٣) .

– ومنه : ما كتبه إلى رجل من بطانته استوصل : ليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك [٥٤].

وهـذا اللـون مـن التوقيعـات وافـر وكثـير ، بحيـث يفـوق غـيره مـن التوقيعات.

وبذلك نكون قد وقفنا على أنواع التوقيعات ، من خلال التتبع والقراءة المتأنية لما بين أيدينا من توقيعات أدبية .

٣ـ مواصفات التوقيع والموقع :

أولاً : : مواصفات كاتب التوقيعات الأدبية :

لكل صاحب صناعة مقومات ومواصفات تعينه على السمو في صناعته ، وبغيرها يقع عمله دون المراد ، ويهمل ، وتسدل عليه ستائر النسيان ، وكاتب التوقيعات واحد من رجال الدولة المرموقين ، الذين يدين لهم الناس بلون من الإكبار والإعجاب.

ومن هنا ، حدد النقاد شروطاً ومواصفات ، ينبغي أن تتحقق في هذا النوع من الكتاب، ولعل من أهم هذه المواصفات :

١ـ أن يكون من أهل الفصاحة والبلاغة :

في بيئة العصر العباسي الأول ، الذى عرف خلفاؤه ووزراؤه بقوة البلاغة ، وفصاحة اللسان ، لم يكن ليصل إلى هذه الدرجة المرموقة إلا من حاز قصب السبق في فنون البلاغة ، إذ لابد أن يكون منها بأعلى رتبة ، وأسنى منزلة [٥٥] يقول ابن خلدون : " ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه ، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع القصص

بين يدى الرشيد ، ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقـيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها ؛ للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل : إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار " (٥٦)

فلابد أن يكون كاتب التوقيعات لسناً فصيحاً ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه .

٢ ـ أن يكون من ذوى العلم والمروءة :

كاتب التوقيعات لابد أن يكون موصوفاً بالعلم ، موسوماً بالمروءة ، كبيراً في أعين الناس .

ويشـير ابـن خلـدون إلى بعـض هـذه الصـفات ، فيقـول: " واعلـم أن صاحب هذه الخطة (الوظيفة) لابد أن يُتخير مـن أرفـع طبقـات النـاس، وأهل المروءة والحشـمة مـنهم، وزيـادة العلـم، وعارضـة البلاغـة، فإنـه مُعرّض للنظر في أصول العلم ؛ لما يعـرض في مجـالس الملـوك ، ومقاعـد أحكامهم " (٥٧)

وتسلح كاتب التوقيعات بسلاح العلم، يجعله يضع الأمور في نصابها، والطوارق في أماكنها وبذلك تسمق مكانته، وتعلو رايته.

٣ – أن يكون موصوفاً بجزالة الرأي وقوة الحجة :

جزالة الرأي، وقوة الحجة من أهم صفات كاتب التوقيعات؛ لأنه إذا كان ذا رأى هش ضعيف لم يسمع له، ولم يؤنس بكلامه .

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى، وابن خلدون في مقدمته أوصافا كثيرة للكتاب، منها: أنه لابد أن يُعرف الكاتب بغريزة عقله ، وحسن أدبه، وفضل تجربته ..... فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته لله[٥٨] .

ومنها " وفور العقل، وجزالة الرأي، فإن العقل أسُّ الفضائل، وأصل المناقب، ومن لا عقل له، لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله "[٥٩]

هذا، ويضيف القلقشندي شروطاً أخرى ، منها : الإسلام، ويذكر أن هذا الشرط ضروري ؛ حتى يؤمن على كتابة ما يملى عليه ، ولأنه يترتب على كتابته منفعة أو مضرة .

ومنها : الذكورة ، والحرية ،والتكليف ، والعدالة ، وقوة العزم ، وعلو الهمة ، وشرف النفس ، والكفاية لما يتولاه ؛ لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة بكتابته ، ويوجب الوهن في أمر المسلمين وربما عاد عليهم عجزه بالوبال[٦٠] .

وهذه الشروط التي ذكرها أرباب العلم والأدب، تجسد لنا ما كان يطلب في كاتب التوقيعات من ثقافة واسعة ،ومن حصافة ، وتهذيب في الذوق ، وحلم وأناةٍ ، وذكاء ، وقدرة على تصريف الأمور ، وإحسان للجواب ، ولباقة في الخطاب ، وبلاغة في الكلام ، بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، ويستولى على عقول الرجال استيلاءً .

ثانياً : مواصفات حسن التوقيع الأدبي :

التوقيعات فن نثرى من فنون اللغة العربية ، ولون من ألوان البلاغة ، وضرب من الإيجاز .

ومن هنا ، فليس كل توقيع يصلح أن يكون توقيعاً أدبياً ، وإنما لابد أن يتحقق في التوقيع مجموعة من الشروط التي تجعله مقبولاً وصالحاً ، منها:

١ – البلاغـــة :

بلاغة التوقيع أمر ضروري ، حتى يكون مقبولاً لدى الأذواق ، وبلاغته تعنى : أن يكون مناسباً للمقام ، أو للقضية التي قيل فيها ، وحين ننظر في توقيعات العصر العباسي الأول ، نجد الموقعين قد تفننوا في توقيعاتهم ، وتجلت على أسلات أقلامهم ثمار البلاغة يانعة ناضرة ، واشتهر عدد منهم ببلاغة التوقيعات ، وبلوغهم فيها الغاية التي لا تبارى ،أمثال: المنصور ، والرشيد ،والمأمون ، والحسن بن سهل ، وجعفر البرمكي ؛ وكان الأخير آية في توقيعاته القصيرة البليغة .

يقول عنه صاحب كتاب الوزراء والكتاب:" وكان كاتباً بليغاً، إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغته " [٦١] .

وقد تعرضت لذكر شواهد عديدة من التوقيعات خلال هذا البحث ، وفي ذكرها في مكانها غناء عن ذكر بعضها هنا، فليرجع إليها ؛ لإدراك مقدار ما تتضمنه من بلاغة واقتدار .

٢ـ الإيجاز :

الإيجاز أحد المقاييس المهمة لحسن التوقيع وجودته، ومعناه : أن تكون ألفاظ التوقيع قليلة معدودة، ولكنها تدل على معان غزيرة ، فأحسن الكلام ما أغناك قليله عن كثيره، وكان وقعه في الأسماع خفيفاً مستملحاً، لا حشو فيه ولا تعقيد .

وهو أحد مظاهر الجمال في فن التوقيعات ، وهو الغالب على هذا الفن ، فقد يأتي التوقيع في جملة قصيرة ،وقد يأتي في كلمة واحدة تفي بالغرض ، وقد يأتي بترك التوقيع بالكلية ، كما فعل طاهر ابن الحسين حين وقع في رقعة مستبطئ إياه : " ترك الجواب جواب " [٦٢] .

وهو يستعمل في مخاطبة الخاصة ، وذوي الأفهام الثاقبة ، الذين يكتفون بيسير القول عن كثيره ، وبجمله عن تفسيره [٦٣]

وقد تفنن رجال الدولة العباسية – من خلفاء ووزراء وكتاب – في وجازة التوقيعات واختصارها ، فقد وقع المهدى لرجل شكا الحاجة : " أتاك الغوث " [٦٤] .

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه بإيجازه الدقيق ، حتى ضُرب المثل بإيجازه ، ومن توقيعاته في رقعة خدم طلبوا الزيادة في أرزاقهم : " قليل دائم خير من كثير منقطع " [٦٥] .

وهي توقيعات مبنية على التركيز والإيجاز ، وهو سر من أسرار الجمال والجلال فيها

٣ـ الإقناع :

الإقناع أحد العناصر المهمة التي ينبغي توفرها في التوقيع الأدبي ؛ ليكون حسناً وجيداً .

ومعناه : أن يتضمن التوقيع من وضوح الحجة وسلامتها ما يحمل الخصم على التسليم ، ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة (٦٦) .

وحين يكون الكلام مقنعا للمخاطب ، وواضحاً في حجته وبراعته ، يدفعه ذلك إلى التسليم والرضا بمضمون الكلام .

وحين نجيل الطرف فيما تحت أيدينا من توقيعات لرجال الدولة العباسية في عصرها الأول ، نجد عنصر الإقناع فيها بارزاً ، حيث جاءت التوقيعات فيها مقنعة ومفحمة للخصم ، حاملة له على التسليم والرضا .

ولذا لم تذكر لنا كتب التاريخ الأدبي ، أن أحداً عارض في مضمون توقيع ، أوراجع فيه ، أوقدح في وضوح حجته ، أو سلامة مضمونه .

وسوف أذكر – هنا – بعض توقيعات رجال الدولة العباسية ، والتي استوفت مقاييس الحسن والجودة ، من بلاغة ، وإيجاز ، وإقناع :

من ذلك، ما وقع به السفاح في رقعة رجل سعى إليه بآخر:" تقربت إلينا بما باعدك عن الله ، ولا ثواب لمن خالف الله " (٦٧) .

ومنه ، ما وقع به المنصور إلى عامله على حمص ، وقد وصله منه كتاب فيه خطأ لغوى :

" استبدل بكاتبك ، وإلا استبدل بك " [٦٨] .

ومن ذلك – أيضا- ما وقع به الرشيد إلى صاحب السند حين ظهرت بأرضه العصيبة :" كل من دعا إلى الجاهلية ، تعجل إلى المنية " [٦٩] .

ومنه وقع به جعفر بن يحيى البرمكي ، حين أكثر الناس من شكاية عامل له ظهر منه ظلم وجور ، فوقع في قصتهم :" يا هذا ، قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت " [٧٠] .

ومنه ، ما وقع به الفضل بن سهل إلى صاحب الشرطة : " ترفق ، توفق" [٧١] .

فكل هذه التوقيعات التي مثلنا بها ، تمتاز بالبلاغة ، والإيجاز ، والإقناع ، فضلاً عن السجع المطبوع الذى تزدان به ، ومثل التقسيم المتوازي بين الجمل ، بحيث تنتهي كل جملة بسجعةٍ مغايرة للتي بعدها ، على أن السجع ليس شرطاً في جمال التوقيع ، فقد يخلو التوقيع منه، ويستعيض عنه بجماليات أخرى .

١- **عنصر المفاجأة** :

عنصر المفاجأة من العناصر المهمة لضمان حسن التوقيع وتأثيره ، وهو يتمثل في صيغة الطلب، من أمر، أو نهي، أو تهديد، أو وعيد أحياناً، وهي أمور لا يخلو منها توقيع فنى جميل .

وفي ذكر الشواهد السابقة غناء، عن معاودة الاستشهاد بنماذج أخرى هنا.

هوامش المبحث الأول

١) فتوح البلدان ، لأبى الحسن أحمد بن يحيى البلاذري / ٤٥٧ وما بعدها ، راجعه وعلق عليه : رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة ١٩٥٩م مصر، والطبقات الكبرى ، لأبى عبد الله محمد بن سعد الزهري ج٥/ ١٥ ، دار صادر بيروت ١٩٦٠م .

٢) هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبعة البكري، شاعر جاهلي ، والمرقش لقبه ، وهو عم المرقش الأصغر ، ولكن الأصغر أشعر منه ، وهو مع ذلك شاعر فحل مجيد في غزله و حماسته ، توفى حوالى ٥٥٢م (الأغاني ، للأصفهاني ، ج٦/ ١٢١ وما بعدها ، ط٣١

٣) و دار الثقافة بيروت ١٩٦٢م).

٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي ، زعيم شعراء العصر الجاهلي ، برع في الشعر بما لم يأت به أحد قبله ولا بعده، توفى سنة ٥٣٩ م .

٥) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر / ٤٦٠ لأبى هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق : محمد على البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبى – القاهرة ١٩٠٥م .

٦) ينظر : فتوح البلدان / ٤٥٩ .

٧) هي الشفاء بنت عبدالله بن شمس بن خلف القرشية العدوية، أسلمت قبل الهجرة، وكانت من عقلاء النساء، وكان عمر بن الخطاب يقدمها في الرأي، توفيت حوالى عام ٢٠ هـ . (يراجع : أسد الغابة ، لابن الأثير ، جـ٧/ ١٦٢، ١٣٦، تحقيق محمد غبراهيم البنا وأخرين ، دار الشعب ، القاهرة .)

٨) فتوح البلدان / ٤٥٨، وأسد الغابة ، جـ٢ / ١٦٢ وما بعدها .

٩) أم كلثوم : أخت عقبة بن أبى معيط القرشية الأموية، أسلمت بمكة ، وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بها ٣٢هـ(أسد الغابة ، جـ٧ / ٣٨٦ وما بعدها)

١٠) عائشة بنت سعد بن أبى وقاص ، تابعية ، ومن رواة الحديث الثقات ، روى لها البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي ، توفيت عام ١١٧ هـ (طبقات ابن سعد ، جـ ٨ / ٤٦٧ وما بعدها) .

١١) هي كريمة بنت المقداد بن الأسود الكندية ، من رواة الحديث (أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، عمر كحالة ، ج٤ / ٢٤٤، طـ٤ ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٨٢م .)

١٢) فتوح البلدان / ٤٥٨.

١٣) فتوح البلدان / ٤٥٧ .

١٤) العقد الفريد ، جـ٤ / ١٥٧ ، تحقيق : أحمد أمين وآخرين ، ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ القاهرة .

١٥) يراجع : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، د/ ناصر الدين الأسد / ٥٩ وما بعدها ، ط٤ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م .

١٦) ينظر : السابق / ١٠٧ وما بعدها .

١٧) يراجع : ضحى الإسلام ، لأحمد أمين ، ج١ / ١٧٨ ، وبديع الزمان الهمذاني ، د. مصطفى الشكعة / ٦٤ ، ط١ ، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٩ م، والعصر العباسي الأول ، د/ شوقي ضيف / ٤٨٩ ، ط ١٧ ، دار المعارف ١٩٦٦ م .

١٨) يراجع : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : مجدى فتحي السيد / ٢٦٨ ، دار التوفيق للتراث القاهرة ٢٠١٠م.

١٩) البرامكة : أسرة فارسية ، كان لها شأن عظيم في الدولة العباسية لعهد الرشيد ، حتى نكبهم ١٨٧ هـ .

٢٠) العقد الفريد ، لا بن عبدربه ، جـ٢/ ٢١٧، تقديم وتعليق : د . أحمد يسرى العرباوي ، ط١، دار الإمام على للطباعة والنشر ، المعادي الجديد القاهرة ١٩٩٢م .

٢١) بديع الزمان الهمذاني ، د/ مصطفى الشكعة / ٦٤ .

٢٢) يراجع : التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص ، بقلم الأستاذ / صلاح عبد الستار محمد الشهاوى / ١ ، ‹من الموقع الإليكتروني للجامعة الإسلامية بالهند – ٢٠١٠ م› .

٢٣) مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ، سبتمبر ٢٠١٠ م ، من مقال بعنوان : " التوقيعات" لرفيق حسن الحليمي .

٢٤) لسان العرب، لا بن منظور الإفريقي المصري، ج٨ / ٤٠٦، دار صادر– ١٩٩٧ م، مادة " وقع " .

٢٥) ينظر : زهر الأكم في الأمثال والحكم ،أبو على نور الدين الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي تحقيق : د. محد حجى ، د. محمد الأخضر ، جـ ٢ / ٢٢٠ ، ط١ ، دار الثقافة الدار البيضاء المغرب ١٩٨١م .

٢٦) لسان العرب ، جـ٢ / ٤٠٦ .

٢٧) السابق ، جـ ٢ / ٤٠٦ .

٢٨) كتاب نقد النثر، لأبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ت ٣٣٧ ،هامش صـ١٠٢، تحقيق:د. طه حسين بك ، وعبد الحميد العبادي، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية – القاهرة ١٩٣٩ م .

٢٩) تسمى الشكاوى والظلامات بالقصص ؛ لأن الشاكي أو المتظلم يحكي فيها قصته ، وقد تسمى بالرقاع ؛ تشبيها لها برقعة الثوب .

٣٠) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، لأبى محمد بن عبد الله بن السيد البطليوسي ت ٥٢١ / ١٩٥ ، تحقيق : ا/ مصطفى السقا ، ود. حامد عبد المجيد ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٩٦ م .

٣١) مقدمة ابن خلدون / ٢٧١ .

٣٢) التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص ، بقلم الأستاذ / صلاح عبد الستار محمد الشهاوى / ١ وما بعدها..

٣٣) ينظر : مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، المجلد ١٣ ، العدد ٢٢ ، سبتمبر٢٠٠٨ م ، من مقال بعنوان : فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي ، د/ محمد بن ناصر الدخيل / صـ٨ .

٣٤) أجرينا ، أي : قصدنا .

٣٥) يستن ، أي : يقتدى به .

٣٦) نقد النثر / ١٠٢ وما بعدها .

٣٧) الوزراء والكتاب / ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨ .

٣٨) نثر الدر ، ج٥ / ١٠٨ وما بعدها .

٣٩) أدب الكاتب / جـ٢ / ١٣٤ .
٤٠) لطائف اللطف / ٦٤ ، ٦٨ ، وتحفة الوزراء / ١٤٤ ، ١٤٩ .
٤١) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب / ١٩٥ وما بعدها .
٤٢) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ ، ٣٦٧ إلى ٤٠٠ .
٤٣) سورة النحل ، آية :١١٢.
٤٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٠.
٤٥) هذا ليس بحديث ، ولكنه كلام مرسل قاله أحد الرواة في تاريخ الأمم والملوك للطبري ، جـ٤ / ٤٥٢، طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ.
٤٦) ينظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة ، للألباني ، جـ ١، ٤٩٠ ، طبعة المكتب الإسلامي – بيروت .
٤٧) العقد الفريد، جـ٤ / ٢٠٨ .
٤٨) ورد هذا البيت في شرح ديوان جرير بن عطية / ٣٤٨ ، دار الأندلس للطباعة والنشر –بيروت ، وهو من الكامل .
٤٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٢٠٦ .
٥٠) العقد الفرد ، جـ ٤، ٢٠٦ .
٥١) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٤ .
٥٢) العقد الفريد ، جـ٤ / ٢١١ .
٥٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٤ .

٥٤) جمهرة رسائل العرب ، ج٤ / ٣٧٢ .
٥٥) السابق ، جـ٤ / ٣٧٣ .
٥٦) يراجع : صبح الأعشى ، لأبى العباس أحمد القلقشندي ، جـ ١ / ٦٥ ، مطبعة دار الكتب العلمية القاهرة ١٩٢٢م.
٥٧) مقدمة ابن خلدون / ٢٧٢ .
٥٨) السابق ، والصفحة .
٥٩) المقدمة / ٢٧٣ .
٦٠) صبح الأعشى ، جـ ١/ ٦٥ .
٦١) السابق ، جـ١ / ٦٥، ٦٧.
٦٢) الوزراء والكتاب ، للجهشياري / ١٩٥ وما بعدها .
٦٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٩٠ .
٦٤) نقد النثر / ٩٧ .
٦٥) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٧٣ .
٦٦) يراجع : العصر العباسي الأول ، د . شوقي ضيف / ٥٥٢ وما بعدها .
٦٧) مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، مجلد ١٣، العدد ٢٢ فبراير ٢٠٠٨ ، صـ مقال للدكتور / حمد الدخيل / ١٦

٦٨) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٦٧ .

٦٩) السابق ، جـ ٤/ ٣٧٠ .

٧٠) السابق ، جـ٤ / ٣٧٥ .

٧١) السابق ، جـ ٤/ ٣٨٤ .

٧٢) جمرة رسائل العرب ، جـ ٤/ ٣٨٨ .

المبحث الثاني
فن التوقيعات... وإرهاصات الشموخ والتألق .

أولاً :التوقيعات الأدبية في عصري صدر الإسلام والأموي .. وبداية الانطلاق :

١ـ التوقيعات في عصر صدر الإسلام :

سبق أن أشرت إلى أن التوقيعات الأدبية لم تكن موجودة في العصر الجاهلي بمعناها الذى نعرفه الآن، والسر في ذلك يرجع إلى : عدم معرفة العرب الكتابة ، إلا في حدود ضيقة للغاية، مثل تقييد حساباتهم ، وكتابة عقودهم وعهودهم كما في مجال التجارة .

وحين نقلب الطرف في كتب الأدب بحثاً عنها في أيام الرسول ﴿ﷺ﴾ ، **لا نجدها** أيضاً ، ويرجع ذلك إلى : قلة الذين كانوا يعرفون الكتابة وقت ظهور الإسلام، حيث كانوا لا يتعدون سبعة عشر رجلاً[١]

وقد ذكر بعض الباحثين: أن هناك عبارات كثيرة في أيام الرسول ﴿ﷺ﴾ تتشابه وتتماثل مع فن التوقيعات في أسلوبها ومعناها ، غير أن المؤرخين لم يعدوها ضمن فن التوقيعات ؛ بسبب أنها صدرت عن أصحابها مشافهة ، ولم تدون في أعقاب رسالة أو رد مكتوب.

ومن ذلك ما روي أن رجلاً لحن في حضرة النبي ﴿ﷺ﴾ ، فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضل [٢]

ويكاد يجمع المؤرخون على أن التوقيعات لم تعرف بمعناها الحقيقي ، إلا في عهد خليفة رسول الله الأول، أبى بكر الصديق ﴿رضي الله عنه﴾ ، والسبب

في ذلك : شيوع الكتابة بعد أن أقبل المسلمون على تعلمها ، وأصبح الذين يجيدونها يمثلون عدداً كبيراً في الدولة ، ويضاف إلى ذلك : استخدام الكتابة في كتابة الرسائل ، وتبليغ أوامر خليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وتوجيهها إلى الولاة والقواد في مختلف أطراف الدولة الإسلامية.[٣]

وتلح كتب التاريخ الأدبي، بأن أبا بكر الصديق ﴿رضي الله عنه﴾ هو أول من استعمل التوقيعات في تاريخ الأدب العربي ، والتاريخ الإسلامي، ومع ذلك فالتوقيعات التي أثرت عنه ﴿رضي الله عنه﴾وكذلك كان لسيدنا عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ توقيعات كثيرة، كتب بها إلى ولاته، وقواده في أرجاء الدولة الإسلامية

نماذج من التوقيعات في عصر صدر الإسلام :

نبدأ – هنا – بذكر توقيع لأبى بكر الصديق ﴿رضي الله عنه﴾ يقال عنه: إنه أقدم توقيع في تاريخ الأدب العربي والإسلامي كله، وذلك أن خالد بن الوليد ﴿رضي الله عنه﴾ **بعث إليه كتاباً** من دومة الجندل(مدينة سعودية) يستأمره في أمر العدو، فوقَّع إليه: " ادن من الموت، توهب لك الحياة " [٤]

ومعناه: أنه بقدر حرص الإنسان على اقتحام الأهوال التي يظن فيها الموت والهلاك ، بقدر ما تتاح له الحياة ، وهو مرفوع الرأس ، مهاب الجناب . .

ومن توقيعات سيدنا عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ حينما كتب إليه سعد بن أبى وقاص ﴿رضي الله عنه﴾ من الكوفة – وكان والياً عليها – يستأذنه في بناء دار

الإمارة ، فوقع في أسفل كتابه : " ابن ما يستر من الشمس، ويكن من المطر [٥] .

ومعناه : أنه يأذن له في بناء ما يستره من الشمس ، ويكنه من المطر ، ولا يبالغ في البناء لعرض زينته وسلطانه ، فتضيع بذلك أموال المسلمين سدى ، وهو تجسيد لورع الحاكم ، وحفاظه على أموال الرعية .

- ومن توقيعاته أيضاً : أنه وقع في كتاب أتاه من عمرو بن العاص ﴿رضي الله عنه﴾ : " كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك " [٦] .

- ومن توقيعات عثمان بن عفان ﴿رضي الله عنه﴾ : ما كتبه إلى مروان بن الحكم حين تقدم نفر من أهل مصر يشكونه ، ويذكرون أنه أمر بضرب أعناقهم ، فكتب إليه [٧] : " فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون "[٨].

ووقع عثمان ﴿رضي الله عنه﴾ في قصة رجل شكا عيلة – فقراً أو حاجة –" قد أمرنا بما يقيمك ،وليس في مال الله فضل للمسرف " [٩] .

أما الإمام على بن طالب﴿رضي الله عنه﴾ فقد أثرت عنه توقيعات كثيرة، كتب بها في مقامات، وأحوال عديدة، وهي في جملتها أكثر مما كتبه الخلفاء السابقون عليه .

ومن توقيعاته ﴿رضي الله عنه﴾: ما وقع به إلى طلحة بن عبيد الله [١٠] : "في بيته يؤتى الحكم "[١١]

وكتب إليه الحسن أو الحسين في شيء من أمر عثمان﴿رضي الله عنه﴾، فوقع إليه: " رأى الشيخ خير من مشهد الغلام " .

ومعناه : أن ما يحكم به عقل الشيخ الحكيم المجرب على الأشياء خير مما يحكم به الغلام الحدث وإن كان قد شاهد بعينه .

- وحين سأله سلمان الفارسي ﴿رضي الله عنه﴾ كيف يحاسب الله الناس يوم القيامة ، وقع في كتابه :

" يحاسبون كما يرزقون " [١٢] .

- ووقع في كتاب أتاه من الأشتر النخعي [١٣] فيه بعض ما يكره : " من لك بأخيك كلَّه ؟ " [١٤].

أي : لا يوجد أخ يستطيع إرضاءك في جميع أفعاله وتصرفاته .

- وكتب إليه الحضين بن المنذر [١٥] وهو في معركة صفين [١٦] يذكر أن السيف قد أكثر في ربيعة " وبخاصة في أسرى منهم ، فوقع إليه : " بقية السيف أنمى عدداً " [١٧]

وبعد هذه الإطلالة السريعة على توقيعات الخلفاء الراشدين، نسجل هنا أموراً مهمة :

أنها كانت قليلة بالنسبة لما وليها من عصور، وقد يُعلل ذلك بأنها كانت لاتزال في بداية أطوار النشوء والتطور .

كما نسجل: أن أنواعها قد تعددت وتنوعت، ما بين توقيع بآية قرآنية، أو حكمة، أو مثل سائر، أو ما يجرى مجراها من الأقوال الحكيمة، كما نسجل أيضاً: أنها امتازت بالبلاغة، والإيجاز، والقصد إلى الهدف من أقرب طريق .

٢ – التوقيعات في العصر الأموي :

حين نصل إلى العصر الأموي ،تقودنا غريزة البحث، والنهم إلى المعرفة، إلى تتبع فن التوقيعات في العصر الأموي، وحين نقف على ما فيه من توقيعات أدبية، نلفيها امتداداً صادقاً لعصر الخلفاء الراشدين، ليس هذا فحسب ، بل إنها بدأت تتشكل باعتبارها فناً أدبياً بدأ يشق طريقه بين كثير من الفنون الأدبية النثرية المتزاحمة في هذا العصر .

– وفي العصر الأموي، اعتاد كل خليفة أن يوقع على الرسائل والشكايات، التي ترد إليه من أطراف الدولة ، رداً على ما فيها بما يتفق مع مضمونها .

وفي كتب الأدب التي تهتم بهذا الجانب توقيعات كثيرة لخلفاء الدولة الأموية، بدءاً من رجلها الأول معاوية بن أبى سفيان، وحتى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية في المشرق .

ولم تقتصر التوقيعات على الخلفاء فقط ، بل امتدت إليها أقلام الولاة ،والأمراء، والقواد أيضاً ، مما يدل على أنها بدأت بالفعل تأخذ طريقها نحو الشيوع والانتشار .

وسوف نورد– هنا – توقيعات متنوعة لمشاهير الدولة الأموية ، من خلفاء ، وولاة ، وقادة ، بما يغنى قليله عن كثيره .

نماذج من توقيعات العصر الأموي :

- وقع معاوية بن أبى سفيان في كتاب عبد الله بن عامر ، حين سأله أن يقطعه مالاً بالطف ‹مدينة بالعراق› :

" عش رجباً تر عجباً "[١٨] ، ومعناه : لا تتسرع في حكمك ، وتمهل قليلاً ، وسوف ترى أمورا عجبية .

- وكتب إليه ربيعة بن عِسْل اليربوعي ، يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثنى عشر ألف جذع فوقع له :" أدارك في البصرة أم البصرة في دارك " [١٩]

ومعناه : أن معاوية يستكثر عدد الجذوع التي طلبها الرجل ، لذا كان جزاؤه الرد بهذا الاستفهام المستنكر الساخر .

- ووقع معاوية بن أبى سفيان في كتاب جاءه: " نحن الزمان: من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع " [٢٠] . وهو توقيع يجسد صلف الهيمنة، والإحساس بتضخم الذات.

-وحين كتب إليه الحسن بن على كتاباً أغلظ له فيه القول، وقع إليه: " ليت طول حلمنا عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك " [٢١]

ومعناه: أخشى أن يكون طول حلمى وصبري عليك، سبباً في وصول شر غيرى إليك؛ طلباً لإرضائي، أوظناً منه أنى غير قادر عليك ٠

- **ومن توقيعات يزيد بن معاوية** :

- كتب عبد الله بن جعفر بن أبى طالب إلى يزيد بن معاوية ، يستميحه لرجال من بطانته وخاصته ، فوقع إليه " احكم لهم بآمالهم إلى منتهي آجالهم " [٢٢] فحكم لهم بتسعمائة ألف ، فأجازها يزيد .

- وكتب مسلم بن عقبة المري إلى يزيد بالذي صنع بأهل الحرَّة ، فوقع في أسفل كتابه " فلا تأس على القوم الفاسقين" [٢٣].

- وكتب عبد الله بن جعفر إلى يزيد يستوهبه جماعة من أهل المدينة ، فوقع إليه : " من عرفت فهو آمن " [٢٤] .

- ووقع يزيد إلى عبيد الله بن زياد : " أنت أحد أعضاء ابن عمك ، فاحرص أن تكون كلها"[٢٥] .

ومن توقيعات عبد الملك بن مروان :

لعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي توقيعات كثيرة ، منها : أنه لما كتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق ، وما يقاسي منهم ، ويستأذنه في قتل أشرافهم ، فوقع إليه : إن من يمن السائس أن يأتلف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون [٢٦].

-ووقع في كتاب متنصح : "إن كنت صادقاً أثبناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن شئت أقلناك " [٢٧].

- ووقع في كتاب أيضاً :

كيف يرجون سقاطي بعدما شَمِل الرأسَ مشيب وصلع ؟![٢٨].

ومن توقيعات سليمان بن عبد الملك :

كتب مسلمة بن عبد الملك إلى أخيه سليمان من الصائفة بما كان منه من حسن الأثر في بلاد الروم ، فوقع سليمان في الكتاب : " ذلك بالله لا بمسلمة [٢٩].

ومن توقيعات عمر بن عبد العزيز:

لعمر بن عبد العزيز توقيعات كثيرة تفوق غيره من خلفاء بنى أمية، منها: ما وقع به إلى بعض عماله وقد كتب إليه يستأذنه في مَرَمّة مدينته‹إصلاحها›، فوقع إليه" ابنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم "

ووقع إلى رجل ولاه الصدقات ، وكان دميماً فعدل وأحسن : "وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ" [٣٠] .

وحين أتاه كتاب عدى بن أرطاة ، يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة ، وقع فيه : " لا تطلب طاعة من خذل علياً ، وكان إماماً مرضياً"[٣١] .

ووقع في قصة متظلم : "العدل أمامك " [٣٢] .

ووقع في قصة محبوس : " تب تطلق "

ووقع في رقعة رجل قتل " كتاب الله بيني وبينك " .

ووقع في قصة رجل تظلم من ابنه : " إن لم أنصفك منه ، فأنا ظلمتك".

ومن توقيعات هشام بن عبد الله بن عبد الملك :

-وقع هشام بن عبد الملك في قصة متظلم : " أتاك الغوث إن كنت صادقاً ، وحل بك النكال إن كنت كاذباً ، فتقدم أو تأخر " [٣٣] .

- ووقع في قصة محبوس لزمه الحد : " نزل بحدك الكتاب " [٣٤] .

ومن توقيعات الحجاج بن يوسف الثقفي :

_ وقع الحجاج بن يوسف الثقفي في كتاب قتيبة بن مسلم : " خذ عسكرك بتلاوة القرآن ؛ فإنه أمنع من حصونك " [٣٥] .

_ وفي قصة محبوس ذكروا أنه تاب : " ما على المحسنين من سبيل " [٣٦].

_ **ومن توقيعات زياد بن أبيه** :

رُوى أن السيدة عائشة ﴿رضي الله عنها﴾كتبت إليه في وَصَاةٍ برجل ، فوقع في كتابها : " هو بين أبويه " [٣٧] .

- ووقع في قصة رجل سارق : " القطع جزاؤك " [٣٨]

ثانياً : التوقيعات الأدبية في العصر العباسي الأول ... وذروة الشموخ والتألق :

حين تلقى بنا عصا التسيار، ونصل إلى العصر العباسي الأول ، نجد فن التوقيعات قد سمق وازدهر ، وتألق وانتشر ، وأصبح له حظ كبير من القوة والشهرة الذيوع.

وقد تعاونت وتظاهرت على تحقيق ذلك مجموعة من الأسباب المتشابكة ؛ **والتي منها** :

١- الاهتمام الذى بدأ على استحياء في عهد الخلفاء الراشدين ، وتحرك بشكل وئيد في عهد بنى أمية ، كان بمنزلة الأرض الصلبة التي أُعدت إعداداً ،ومهدت تمهيداً ، ليقف عليها فن التوقيعات في العصر العباسي الأول شامخاً قوياً ، يزاحم غيره من فنون الكتابة الأدبية .

٢- ازدهار الكتابة الأدبية في ظل العصر العباسي الأول ازدهاراً كبيراً، وتعدد أغراضها، وحلولها محل الخطابة في كثير من شئون الدولة وقضاياها .

٣- كثرة الدواوين في الدولة العباسية وتعددها ، واتساع مجالاتها ؛ نتيجة اتساع آفاق الدولة ، وترامى أطرافها ، حتى إن العباسيين أنشأوا ديوانا خاصا بها ، سمى بديوان التوقيعات ، وأسند العمل فيه إلى بلغاء الأدباء والكتاب ، ممن استطارت شهرتهم في الآفاق ، وعرفوا ببلاغة القول ، وشدة العارضة ، وحسن التأني في الأمور ، والمعرفة بمقاصد الأحكام ، وتوجيه القضايا .

٤- ظهور كثير من الخلفاء والوزراء، والكتاب، والقواد البلغاء الذين يشار إليهم بالبنان، حتى غدا الكاتب في هذا العهد بضاعة رائجة، يبحث عنه ويرفع من شأنه، ويوضع في المكان اللائق به، وتسند إليه كثير من أعمال الكتابة في دواوين الدولة [٣٩].

ولعل من أبرز من اشتهروا بفن التوقيعات في هذا العصر : الخليفة المنصور ،والمأمون ، والمهدى ، والرشيد ، ويحيى البرمكي ، والفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وطاهر بن الحسين ، وغيرهم كثيرون .

٥- أن حسن التوقيع غدا في هذا العصر شارة شرف ، وإكليل فخر لصاحبه .

يقول ابن الأثير عن المستظهر بالله : "كان لين الجانب ، كريم الأخلاق ، يحب اصطناع المعروف ، ويفعل الخير ، ويسارع في أعمال البر، وكان حسن الخط ، جيد التوقيعات ، لا يقاربه فيها أحد " [٤٠].

ومن هنا أخذ البلغاء والفصحاء يتبارون في إحراز هذا الشرف ، والتربع فوق عرشه ومجده .

ثالثاً : توقيعات العصر العباسي الأول ... واتجاهاتها الموضوعية :

بعد القراءة المتأنية لتوقيعات رجال الدولة العباسية في عصرها الأول ، من خلفاء ووزراء ، وكتاب، وقواد٠٠٠ والتي تم جمعها من مصادرها الأصيلة في التراث العربي ، يمكننا أن نحدد أهم الاتجاهات الموضوعية التي دار فن التوقيعات في فلكها لهذا العصر ، وهي كما يلى :

أولا : الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

مكارم الأخلاق : هي جملة من الأخلاق الحميدة ، والقيم النبيلة ، التي توارثها المسلمون جيلاً بعد جيل منذ ظهور الدعوة الإسلامية ، ومنذ أن قال النبي ﴿ﷺ﴾ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" [٤١].

وبسبب التأثير العميق الذى تحدثه منظومة مكارم الأخلاق لدى الفرد ، نراه ينقاد إلى فعل الفضائل والمحامد ، ويحجم عن الرذائل والمقابح .

وقد تجلت الدعوة إلى مكارم الأخلاق في " فن التوقيعات " في العصر العباسي الأول فيما يأتى:

١ – إكرام ذوى الفضل :

إكرام ذوى الفضل ، والتلطف معهم ، مبدأ ديني وأخلاقي جليل، وقد تجسد في توقيعات آل العباس تجسيدا جميلاً ورائعاً، ومما جاء من ذلك :

أن أبا العباس السفاح [٤٢] جاءه كتاب من أبى مسلم الخراساني، يستأذنه في الحج، وفي زيارته، فوقع إليه: " لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام، وخليفته، وإذنك لك " [٤٣] .

ومنه ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي [٤٤] في رقعة معتذر من ذنب :" قد تقدمت لك طاعة ، وظهرت منك نصيحة، كانت بينهما نبوة، ولن تغلب سيئة حسنتين "[٤٥] .

ووقع الحسن بن سهل [٤٦] إلى رجل توسل إليه بسالف إحسانه: " مرحباً بمن توسل إلينا بنا " ثم أمر له بصلة [٤٧] .

٢ – الترفق بالضعفاء وإغاثة الملهوفين :

الرفق بالخلق وإغاثة الملهوف وإعانته ، خلق إسلامي كريم ، ومكرمة ومحمدة التزم بها خلفاء الدولة العباسية ، حيث كان اللين والرفق ، ومساعدة الضعفاء عنوانا لهم حين يقع في محله ، أما من كان يحاول ابتزازهم دون استحقاق ، فكانوا يضربون عنه الذكر صفحاً ، وربما ناله شيء من التأديب والتأنيب .

وكان للخلفاء العباسيين ووزرائهم ، وكتابهم ، توقيعات كثيرة في هذا الجانب ، منها :

ما وقع به المنصور [٤٨] في رقعة رجل شكا إليه ديناً: " إن كان دينك في مرضاة الله قضاه [٤٩] فالمدين إن كان قد استدان لأمر مشروع كإطعام أولاد أو ستر عورة، أو وصل رحم مقطوعة، وقف معه المنصور، وفرج كربته، وأزال عنه غياهبها .

ومن حسن الأدب الذى روعي في هذا التوقيع: أن المنصور نسب قضاء الدين إلى الله، ولم ينسبه إلى نفسه، تأدباً، وامتثالاً للقرآن الكريم حين قال على لسان الجن: " **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً** "[٥٠] فنسبوا الرشد دون الشر إلى الله.

ومنه ما وقع به المهدى [٥١] في قصة رجل شكا إليه الحاجة : " أتاك الغوث " [٥٢]

والغوث: اسم بمعنى الإغاثة، وعبر المهدى بالفعل " أتاك " دون جاءك؛ لأن الإتيان أسلس وأسرع من المجيء، كما أنه عبر بالماضي دون المضارع ؛ لتحقق وقوع الإغاثة ، فكأنه قال له : أدركتك الإغاثة سريعاً.

ومنه ما وقع به المأمون [٥٣] إلى الرستمي، وقد تظلم من غريم له (مدين له): " ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة، وجارك طاوٍ، وغريمك عاوٍ " [٥٤]

والتوقيع يشير إلى أن كرم المروءة يقتضى من الدائن أن يتلطف بمدينه، فإن كان معسراً منحه فرصة حتى يصيب مالاَ، كما أن المدين لابد أن

يتلطف مع دائنة، ويصرفه وهو عنه راض وغير ساخط عليه، وقد وردت في الحث على ذلك أحاديث نبوية صحيحة مبثوثة في بطون كتب الحديث.

ومنه ما وقع به المأمون أيضاً إلى الواقدي، وقد كتب إليه يذكر ديناً لزمه ويستمنح: " فيك خصلتان : سخاء وحياء، أما السخاء: فهو الذى أطلق يدك فيما ملكت، وأما الحياء: فهو الذى حملك على أن ذكرت بعض دينك دون كله، وقد أمرت لك بضعف ما كتبت، فزد في بسط يدك، فإن خزائن الله مفتوحة، ويده بالخير مبسوطة " [٥٥] .

وتوقيع المأمون – هنا- طويل ومطنب ، إلا أنه طول مفيد ، دعته إليه : الرغبة في تطييب نفس الواقدي ، وإزالة الحرج عنه ، لا سيما وأنه من ذوى الفضل والعلم ، كما يحمل التوقيع كذلك عبقاً من كرم المأمون وجوده ، وأدبه ، أما كرمه وجوده : فلمضاعفته ما طلبه الرجل ، وأما أدبه : فلنسبته المال والخير لله لا لنفسه .

وتتجلى الرحمة بالغير ، ومراعاة مطالب الفقراء والمعوزين أيضاً ، فيما وقع به المأمون إلى أهل السواد ، [٥٦] حين رفعوا إليه قصة في إتيان الجراد على غلاتهم ، فإذا به يوقع لهم فيها بقوله: " نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد ، فليُحط عنهم نصف الخراج " [٥٧] .

وفي هذا التوقيع تتجسد نفحات الرفق ،ومراعاة الضعفاء من خلال وضع نصف الخراج عنهم؛ حتى لا يجتمع على قلوبهم همان: هم فساد زراعتهم، وهم دفع الخراج كاملاً .

ويبدو أدب المأمون في ذروته حين يعبر عن الجراد بقوله: نحن أولى بضيافة الجراد ، فهو لا يعتبره بلاءً قد نزل ، ولا نقمة قد حلت ، وإنما هو ضيف ، والضيف لا يقيم طويلاً ، ولكن سرعان ما يرحل ويبين ، كما يلمح التوقيع إلى كون الجراد من جنود الله ، وهو أولى من غيره بضيافة جنود الله ، وكأن ما أكله الجـــراد من الزرع ، إنما هي ضيافة أو وليمة قدمها المأمون إليه .....

وهي مكارم خلقية، ومحامد إنسانية، انطوت عليها نفس المأمون، وترجم عنها لسانه، وصدقتها أفعاله .

وتبدو خطا الفضل بن سهل [٥٨] متتبعة آثار خليفته المأمون ، في الترفق والتيسير.

ومما وقع به لحاجبه: " تمهل وتسهل " [٥٩].

والمقصود أن يتريث حاجبه في إدخال الناس عليه لعرض أمورهم ، وفي الوقت نفسه يكون سهلاً رفيقاً ، لا خشناً غليظاً في معاملتهم .

ومما وقع به الفضل بن سهل أيضاً إلى صاحب الشرطة : " تَرفق ، تُوفق " [٦٠].

وعلى الرغم من الإيجاز في هذا التوقيع ، فإنه يشى بمعان كثيرة ، تحتاج في بيانها إلى إسهاب وإطناب ، ولكـن الفضـل كشف المعـاني الكثـيرة في كلمتين ، وهما جديرتان ، بأن تكتبا بماء الذهب ، وتعلقا عـلى رأس كـل مسئول .

٣ – الدعوة إلى الاقتصاد ومجافاة الإسراف :

القصد في الشيء : خلاف الإفراط ، وهو ما بين الإسراف و التقتير ، والقصد في المعيشة: ألا تسرف ولا تقتر [٦١] والاقتصاد محمود في الأمر كله ، بخلاف الإسراف ، فهو مذموم حتى في العبادة لذا قال –تعالى – : " وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" [٦٢]

ومن هنا، نجد هذا المعنى يتجسد بوضوح في فن التوقيعات العباسية ، ومما ورد في ذلك

ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي في قـصة مستمنح كان قد وصله مراراً : " دع الضرع يدر لغيرك ، كما درّ لك " [٦٣]

ففي التوقيع دعـوة لطيفـة إلى الاقتصـاد في الطلـب ، وعـدم الإسراف فيه ، فمن اقتصد وصل ، ومن أسرف حرم .

ولا يخفي ما في التوقيع من رفق ولين ، ومكارم أخلاقية ، تجسدت في رد جعفر على السائل ،من خلال رسمه هذه الصورة البيانية الملتقطة من البيئة العربية .

ولأن الإسـراف يشى بـما في نفس صـاحبه مـن طمـع، ويعلـن عـما ينطوي عليـه مـن جشـع، رفضـه الخلفـاء ، والـوزراء ، وأربـاب الـذوق السليم ، وضربوا الذكر صفحاً عن صاحبه .

ومن ذلك : ما وقع به الخليفة المهدى إلى شاعر مدحه وأسرف في ذلك: " أسرفت في مديحك، فقصّرنا في حِبائك " [٦٤] .

فالإسراف في المدح تسبب في حصول عكس مـا رغـب فيـه الشـاعر ، فالتوقيعات تقوم بدور تأديبي ، وتقويمي لنواحي التقصـير أو الإفـراط لدى الآخرين .

٤ـ التلطف في الحوار مع الآخرين :

التلطف في الحوار مع الآخرين جزء من منظومة مكارم الأخلاق، التـي تتجسد فيها سماحة الإسلام ونقاؤه .

وقد تلطف خلفاء ووزراء، وقواد العباسيين في حوارهم مع غـيرهم، وذلك حين يكون هذا الغير أهلاً للتلطف والمؤانسة، إذ لكل مقام مقال .

ومـن ذلـك : مـا وقـع بـه أبـو العبـاس السـفاح في كتـاب أبـى مسـلم الخراساني ، حين جاءه يستأذنه في الحج، وفي زيارتـه: " لا أحـول بينـك وبين زيارة بيت الله لحرام ،وخليفته ، وإذنك لك " [٦٥].

ومنه ما وقع به الخليفة المهدى إلى رجل من بطانته استوصل [٦٦] : " ليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك "[٦٧] .

وهـو كـلام ودود لطيـف ، لا يصـوغه سـوى لسـان حكـيم، يسـترق القلوب بحلاوة منطقه، وحسن بيانه، وقد كان المهدى كذلك .

ومنه ماقع به المأمون إلى رافع بن ليث بن نصر بن سيار [٦٨] : " يا أبا رافع ، إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا " [٦٩] .

كان المأمون يعرف رافعاً بن ليث ، وحين رفع بعض الناس شكاية منه إلى المأمون ، استدعاه بطريـق فيـه لطـف وتـودد ، وإن كـان المـأمون يحذره.

وحين كتب إليه عبدالله بن طاهر يشكو إليه بُعده عن حضرته ، ويسـأله الإذن له في الإلمام بها وقع إليه بقوله [٧٠] : " قربك يا أبا العباس حبيب ، وأنت من قلبي حيث تكون قريب ، وإنما بعدت دارك نظراً بك، ورغبة إليك مع قول الشاعر:

رأيتُ دنـــو الدار ليس بنافع إذا كان ما بين القلوب بعيد [٧١]

فهذ التوقيع يحمل من معانى التودد والتلطف والحنو الكثير ، ودلالة ذلك : شيوع ألفاظ : القرب والحبيب ، والقلب ، والرغبة ، كما أنه يحمل جانباً نفسياً ، وهو حب المأمون له ، ولوالده الذى كان قائدا لجيوشه .

ومنه أنه لما مات عمرو بن مَسْعدة [٧٢] ، رفعت إلى المأمون رقعة تفيـد أنه خلف ثمانين ألف ألف درهـم ، فوقـع في ظهرهـا : " هـذا قليـل لمـن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيما خلف ،وأحسن لهم النظر فيما ترك " [٧٣]

ففي هذا الموقف ، نجد بعض الكاشحين لعمرو بن مسعدة ، يرفع هذا التقرير إلى المأمون عقب وفاة الرجل ، يخبره فيه بضخامة المال الذى خلفه ، وكانت نية المخبر سيئة ، حيث كان يرغب في صدور قرار من الحاكم بمصادرة المال ، وضمه إلى خزينة الدولة ، لكن المأمون يؤثر الفضل واللطف، لا سيما أن المال حلال ولا شبهة فيه ، ومن هنا كان هذا التوقيع ، الذى يوضح فيه مصدر المال ، ويدعو فيه لأبناء عمرو بالبركة ، في المال ، وبحسن النظر فيما خلف والدهم .

ومنه ، ما وقع به يحيى بن خالد البرمكي إلى رجل استبطأه واستزاره : " أجنح إليك بغالب الفضل ، وأعتذر إليك بصادق النية " [٧٤] .

فيحيى البرمكي – هنا – يقر للرجل بفضله ، ويعتذر إليه بإخلاص ، وهو لون من أدب النفس الذى تحلى به خلفاء بنى العباس ووزراؤهم على حد سواء .

ومنه ، ما جاء في قصة عامل مصر في رجل من بطانته يوصيه ، فوقع إليه جعفر بن يحيى البرمكي بقوله : " إنه رغب إلى شِعْبك [٧٥] ، فارغب في اصطناعه "[٧٦] .

فتوقيع جعفر البرمكي – هنا – يرسم لعامل مصر كيف يتعامل مع المخلصين من بطانته ،والطريقة هي أن يتودد إليهم بالعطاء ، ويصلهم بالنوال .

ومنه ما وقع به الفضل بن سهل إلى هَرْثمة [٧٧] وقد أشار عليه برأي: " لا يُحل ما عقدتَ" [٧٨] فالفضل بن سهل لا يقبل رأى هرثمة فحسب ، بل يثنى على آرائه ، ويؤكد على دقته وحكمته ومدى الحظوة التي يكنها له .

ومن جميل التوقيعات اللطيفة الودودة في هذا المقام ،أن الرشيد [٧٩] أمر جعفراً البرمكي أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتم [٨٠] – ويأخذه إليه – عزلاً لطيفاً ، فكتب إليه جعفر : " قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك " فوقع إليه الفضل : " ما انتقلت عنى نعمة صارت إليك ، ولا خصتك دونى " [٨١] .

فإذا كان لطف جعفر وتوددة يبدو رائعاً وبليغاً ، حين هوّن على أخيه الأمر ، فإن توقيع الفضل أروع ،حيث أعلن فيه عن الرضا بالأمر ، إذ لم ترحل عنه نعمة توجهت نحو أخيه .

فكلاهما لطيف في أسلوبه وطريقته ، الأول عرض ولم يصرح ، والثاني انصاع وشكر .

٥ – **الوعظ والإرشاد**:

الوعظ والنصح والإرشاد مبدأ إسلامي أصيل، وقد تجسد هذا المبدأ على ألسنة عظماء الدولة العباسية ،من خلفاء ، ووزراء ، وكتاب ، وقواد من خلال ما قدموه من بليغ التوقيعات ، وفصيح الكلمات ، حيث قامت

التوقيعات في هذا العصر- مكان الخطابة ، وحلت محلها في التوجيه والإرشاد .

ومما ورد من توقيعات في هذا الشأن: ما جاء أن المنصور وقع على كتاب إلى عبد الله بن على عمه يقول : " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ "(٨٢)

فالآية الكريمة التي اشتمل عليها التوقيع ، تدعو إلى محمـــدةٍ أخلاقية ، وهي أن يقدم الإنسان الخير دائماً ، حتى ولو كان لمن يجانفه ويكاشحه ، فيقع هذا الخير موقعاً حسناً ، تذوب بسببه عوامل الشقاق والخلاف ، فيكون التقارب بعد التباعد والتنافر .

ومنه ما وقع به المنصور – أيضاً – في قصة رجل سأله أن يبنى بقرية مسجداً : " الصلاة على بعد ذلك : أعظم لثوابك "(٨٣) .

الرجل – هنا – يطلب من المنصور بناء مسجد قرب محلته ، والمنصور يرشده إلى التماس المسجد البعيد للصلاة فيه ، فهو أعظم لثواب الإنسان.

ومنه ما وقع به المنصور – أيضاً – إلى صاحب مصر حين كتب إليه يذكر نقصان النيل ،فوقع : " طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد " (٨٤) .

فالمنصور ينصح بوجوب اجتناب المعصية والفساد بين أفراد الجيش ؛ لأن المعصية تمنع الرزق ، وماء النيل رزق ساقه الله إلى العباد ، وقد لا يتواتر رزق مع تواتر فساد ومعصية .

ومن توقيعات الرشيد المتضمنة للنصيحة والإرشاد : ما وقع به إلى صاحب خراسان بقوله : " داو جرحك لا يتسع "[٨٥] .

ومنه ما وقع به إلى عامله على فارس : " كن منى على مثل ليلة البيَات "[٨٦]

ومعناه : كن حذرا يقظاً كما لو كنت سأوقع بك غداً ، فإن الإنسان إذا علم بقدوم أمر ذى بالٍ عليه ، استعد وانتبه ، حتى إذا داهمه شيء ، لم تكن فيه مفاجأة ولا مباغتة .

ووقع المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة ، بقوله : " ياعمرو ، عمر نعمتك بالعدل ، فإن الجور يهدمها " [٨٧] .

فالمأمون يذكر عمراً بنعم الله عليه ، ويرشده إلى أن ترادف النعم على العبد ، يستدعى منه تعميرها ولا يكون ذلك إلا بالعدل والشكر ، أما الظلم والجور ، فإنه مؤذن بخراب الديار ، وسلب النعم .

ومن توقيعات المأمون في هذا الشأن أيضاً : ما وقع به إلى بعض عماله : " طالع كل ناحية من نواحيك ، وقاصية من أقاصيك ، بما فيه استصلاحها [٨٨] .

فالتوقيع يصور حال الحاكم الأمين الذى يتحسس أخبار عماله على البلاد ، وينصحهم أن ينظروا إلى أماكن حكمهم بعين الحكيم المصلح ، الذى يرى العيب أو الخلل ، فيسهر على علاجه ورأبه ، لا أن يترك الأمور سدى ، والناس في تخبط وحيرة .

ومنه ما وقع به جعفر البرمكي في قصة محبوس التمس الإطلاق : " لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ "(٨٩) كل محبوس يترقب وقت إطلاقه ، ويستعجل وقت خروجه ، وجعفر البرمكي -هنا – بإيراده هذا الجزء من الآية ،كأنه قال له : لإطلاقك وقت محدد ، فاصبر حتى تبلغه .

ومنه ما وقع به في قصة رجل شكا بعض خدمه : " خذ بأذنه ورأسه ، فإنه مالك "(٩٠) فهو يرشد هذا المالك ، إلى أنه لا يستساغ منه شكاية بعض خدمه ؛ لأنهم ملك يمينه ، وملك اليمين إن شذّ قوَّم وأدّب، فإن عاد إلى الصواب ، رفع التأديب .

ووقع – أيضا – في رقعة صرورة(٩١) استأذنه في الحج : " من سافر إلى الله أنجح " "(٩٢)

وفي قصة رجل شكى عُزْبة : " الصوم لك وجاء " "(٩٣)

ووقع في قصة رجل طلب عودة ابنه ، حيث طالت غيبته : " غيبة يوسف(عليه السلام) كانت أطول "(٩٤)

وفي التوقيع تذكير بالتأسي بيوسف وأبيه يعقوب (عليه السلام)، حيث طالت غيبته ، ثم هلت طلعته .

ووقع إلى بعض عماله : " اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا "(٩٥) في التوقيع نصيحة مهمة لدى كل محكوم ، وهي أن يلتمس العمال من الأعمال والتصرفات ما يكسبهم عطف رؤسائهم ، ويستنبت محبتهم في قلوب خلفائهم .

ثانيا : تأديب المخالفين والمفسدين :

تتجسد قوة الدولة في تطبيقها لقوانين الثواب والعقاب على رعاياها، فالمسيء يتلقى العقاب الرداع على إساءته، والمحسن يجازى ويكرم بإحسانه .

وقد مر بنا أن خلفاء الدولة العباسية ووزراءها ، قد أحسنوا إلى كل محسن ، وأغدقوا عليه من جميل ودادهم ، وبر وصلهم .

وبالمثل نراهم يعبسون في وجه كل عابث ومفسد ، ويلقون عليه بشواظ من عقابهم ، كل على مقدار عبثه و إفساده .

وقد صور فن التوقيعات في العصر العباسي الأول صورًا من إحسان بني العباس إلى من يوالونهم، ويعيشون تحت رايتهم، وسوف يصور الآن عنفهم ضد المخالفين والمقصرين ، ومن يرغبون في نشر الاضطراب والشر في أرجاء الدولة، وهو ما يعطي لفن التوقيعات قيمة أدبية لا تقل عن غيره من فنون الكتابة ، وقد تجلى عنف العباسيين ضد مخالفيهم فيما يلي :

١- التنبيه المزلزل إلى الهفوات :

الأخطاء والهفوات أمور تقع كثيرا ، فإذا قوبلت بالصمت زادت ، واشتد أوارها ، وإن قوبلت بالتنبيه المزلزل المخيف ، فإن الأمور تعود إلى نصابها ، ويرعوى العابث ، وينكمش المفسد ...

ولدينا من توقيعات بني العباس في عصرهم الأول ، ما يجسد ذلك ، ويصوره خير تصوير ...

ومن ذلك : أن المهـــدي علم بأمر حدث بخراسان قبل علم واليها ، فـــوقع إليه :" أنا ساهـــر وأنت نائم" (٩٦)

وهو توقيع يبدو في ظاهره خبريا ، ولكنه يحـــمل معنى إنشائيا ، وهو الاستفـــــهام الإنكاري التوبيخي ، أي : أأنا ساهر ، وأنت نائم ؟ والساهر من شأنه أن يشعر بما يقع حوله دون النائم الذي يغط في نوم عميق .

والمقصود به : التنبيه على غفلة والي خراسان ؛ وتقصيره في الإحاطة بما يقع في دائرة عمله .

ومنه ما وقع به جعفر بن يحي البرمكي في قصة متظلم من بعض العمال : " إني ظلمتك دونه "(٩٧) فهذا التوقيع الخبري يحمل اعترافا من جعفر بخطأ اختياره هذا العامل، وهذا التوقيع حين يقرأه عامله، سوف يصاب برجفة شديدة، ويترقب أمرا إدًّا؛ لما يستشف منه من معاني التهديد والوعيد .

_ وحين تكثر شكاية الناس من أحد العمال، نرى جعفر البرمكي يوقع إليه بقوله :"يا هذا، قد كثر شاكوك، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت "(٩٨)

وهـو تنبيـه صريـح ومزلـزل، فيـه الشـدة والعنـف في التوجيـه؛ إذ أول الحجامة تخدير القفا، وآخر الدواء الكيّ .

_ ولا يتوقف حد التنبيه على أخطاء العمال مع الرعية فقط ، بل يمتـد التنبيه إلى الإشارة إلى بعض الأخطاء الكتابيـة التـي قـد تقـع مـن بعـض الكتاب .

ومن ذلك ، ما وقع به المنصور إلى عامله على حمص ، وقـد جـاء منـه كتاب فيه خطأ لغــوي:" استبـــدل بكاتبك، وإلا استـــُبدل بك "[٩٩]

ففي هذا التوقيع تبدو حدة المنصور وشدته، ويلوح غضبه متجسدا في الأمر بتغيير الوالي لكاتبه ، وإلا يفعل ، فالإطاحة ستكون بهما معـا ، وهو تجسيد لحرص الخلفاء العباسيين على سلامة اللغة ، والفزع من أمر اللحن أو الخطأ فيها .

ـ ووقع المنصور – أيضا – إلى أهل الكوفة ، وقد شكوا عـاملهم:" كما تكونون يؤمر عليكم " [١٠٠]

ويبدو المنصور –هنا – واعظا حكيما ، يعـظ أهـل الكوفـة بالاسـتقامة ، وحسـن السـيرة ، حتـى يوفـق الحـاكمون في توليـة الصـالحين علـيهم ، فخشونة العامل تترجم غالبا عن سوء المحكومين .

ـ ووقـع الرشـيد في قـــصة البرامـــكة بعـد نكبـتهم في عـام ١٨٧هـ بقـــوله: " أنبتتهم الطاعة ، وحصدتهم المعصية "[١٠١]

وهذا التوقيع قمة في الروعة والجمال ، ولعل سر روعته : أنه تعبير برئ ،لكنه يحمل بين طياته تخويفا وتهديدا لكل مخالف و خارج ، وما حل بالبرامكة جدير بأن يوضع في اعتبار كل مسئول في الدولة ، حتى لا يحل به ما حل بهم .

ومن ذلك ما وقع به أبو العباس السفاح إلى ساع :"تقربت إلينا بما باعدك عن الله ولا ثواب لمن خالف الله " (١٠٢)

فهذا الساعي يتقرب إلى السفاح عن طريق الوشاية ، ونقل أخبار الآخرين إليه ، ظنا منه أنه سينال بذلك حظوة عنده ، ولكنه يفاجأ بغضب السفاح عليه ،ويتجلى ذلك في زجره وتنبيهه إلى خطأ مسلكه ، وغلط وجهته ، ثم يكون العقاب بالحرمان من الوصل ؛ إذ لا ثواب لمن تقرب إلى الغير بما فيه إغضاب لله .

وبذلك يقطع هذا التوقيع الطريق على كل متسلق أو واش ، يريد أن يعيش على حساب غيره .

ومن التوقيعات ما يحمل تنبيها إلى شرف العمل ، وإلى مهانة الكسل والخمول ، فخير للإنسان أن يحمل حبله ويحتطب فيأكل ، من أن يعيش عالة على غيره ، يسألهم ، ويريق ماء وجهه تحت أقدامهم .

ومن ذلك ، ما وقع به الخليفة المأمون ، في رقعة مولى طلب كسوة : " لو أردت الكُسوة ، للزمت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد ، فحظك الرؤيا ".

فمن أراد ستر عورته ، وإشباع نهمته ، فليلتمس عملا يعينه على ذلك ، ومن آثر النوم والخمول ، فحظه أن يرى ذلك مناما لا حقيقة وواقعا ...

٢ـ الوقوف في وجه المعتدين والأشرار والتضييق عليهم.

المعتدون والأشرار، والخارجون على سلطان الخلافة، سوس ينخر في عظامها ، ويفنيها على مهل ، لذا كان الوقوف في وجوههم ، والتضييق عليهم واجبا ، لا يمكن التهاون فيه، أو التشفع من أجله، وقد نهج الخلفاء العباسيون ووزراؤهم هذا النهج ، فخـــلصوا دولتهم من شر محدق، وخطر عاصف .

وقد جاء في فن التوقيعات ما يشير إلى هذه المعاني، ويجسد سياسة الخلفاء العباسيين في محاربة الفساد وأهله ، والتضييق عليهم أينما وجدوا .

ومن ذلك ما وقع به طاهر بن الحسين [١٠٣] في قصة قاتل :" لا يؤخر قتله "[١٠٤]

فالقضية لا تحتمل تفكيرا ولا تأخيرا ، لذا كان التوقيع بسرعة إنفاذ حكم القتل فيه، انطلاقا من قول الله تعالى-:

" وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[١٠٥]

ومنه ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي في قصة محبوس :"الجناية حبسته ، والتوبة تطلقه "[١٠٦]

فمن اقترف جرما حوسب بالحبس ، ومن تاب وأناب ، ونأى عن تتبع طرق المفسدين ، فالعفو يسعه ، والإطلاق حظه .

ومنه ما وقع به الحسن بن سهل في قصة امرأة حُبس زوجها :" الحق يحبسه ، والإنصاف يطلقه " (١٠٧)

فإنه لما كان الظلم والجور تعديا على حقوق العباد، وبالتالي فيه إغضاب لله عز وجل، كانت تجارته إلى خسارة ، والركون إليه إلى ضلالة ، وكان بئس الـــزاد للورود عـــلى رب العباد.

ومن التوقيعات التي حملت هذه المعاني ، ما وقع به الفضل بن يحيى :"بئس الزاد إلى المعاد ، التعدي على العباد"(١٠٨).

وكان من أهم الأمور التي تشدد بنو العباس في التصدي لها : أن يخرج أحد على سلطانهم ، أو يبدو مخالفا للنسيج العام لنظام الدولة وسياستها .

ومن ذلك ما وقع به الرشيد إلى واليه على المدينة :" ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد "(١٠٩)

فالعلويون الذين يسكنون المدينة، كانوا يمثلون – على مدار التاريخ العباسي – شوكة تؤرق ليل الحكام العباسيين بالسهاد، وتنفي عن عيونهم متعة الرقاد، ولذا تعقبوهم، وأطاحوا بكل هامة تعلو لهم هنا أو هناك .

ومنه ما وقع به أبو العباس السفاح إلى عامل تظلم منه الناس كثيرا :" وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا " [١١٠] .

فالتوقيع –هنا – تشتم منه رائحة التهديد بخلع هذا الوالي، وهو ما سوغ وصفه بالضلال ، ولا ينبغي لحاكم أن يكون بهذا الوصف المنافي لأوصاف الولاة الصالحين .

– ولعل ما يوضح ذلك ويؤكده : ما وقع به المأمون من متظلم من محمد بن الفضل الطوسي : " قد احتملنا بذاءك ، وشكاسة خلقك ، فأما ظلمك للرعية فإنا لا نحتمله "[١١١] . فالمأمون _هنا_ يبدو عارفا لما يتصف به الطوسي ، من بذاءة ومشاكسة ، وقد يحتمل ذلك في موضعه ، أما الظلم فهو مؤذن بسقوط الدولة ، وخراب الديار ، وهو مالا يسمح به في ظل خلافة فتية قوية .

– وحين ينزل البلاء بقوم يتوقع أن تغدق عليهم الرحمات، وترفع عنهم آثار النكبات، كما مر بنا أن المأمون أحط نصف الخراج عن قوم نزل الجراد بأرضهم، لكن حين يقع البلاء على مخالف أو خارج عن الطاعة ، فإن الأمور تجري بصورة أخرى ...

ومن ذلك ما وقع به أبو العباس السفاح ، في رقعة قوم شكوا غرق ضِياعهم في ناحية الكوفة :" وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "[١١٢] .

فالسفاح لم يشملهم بعطفه وكرمه ، وإنما دعا عليهم بالبعد البعيد ، وقد يفهم أنه حال بينهم وبين ما يشتهون من التعويض أو الإغاثة أو حط الخراج ، إذ إنهم قوم قد فشا فيهم الظلم ...

٣ـ تأديب المخالفين وكسر شوكتهم.

قامت التوقيعات في العصر العباسي الأول بدور سياسي فاعل، وكان لها أثرها البين الظاهر في تأديب المخالفين، والضرب على أيدي العابثين ، وبذلك تكون قد أدت دورا إيجابيا في خدمة المجتمع .

ومما ورد من توقيعات في هذا الشأن:

توقيع الفضل بن سهل في رقعة متظلم :" كفي بالله للمظلوم ناصرا "[١١٣]

فالتوقيع هنا، وإن كان فيه تفويض الأمر لله، إلا إنه يحمل بين طياته تهديدا شديدا لظالمه، حيث كان الفضل يملك إيقاع العقاب به من خلال منصبه الوزاري لدى المأمون .

ومنه ما وقع به يحيى بن خالد البرمكي في قصة متظلم ، ليعرض التوقيع على من ظلمه من العمال : "أنصف من وليت أمره ، وإلا أنصفه منك من يلي أمرك "[١١٤] وهو توقيع شديد اللهجة ، صارم العبارة ، لا يحتمل سوى انقياد العامل وطاعته لأمر سيده ، وإلا فإن العواقب سوف تكون وخيمة ، وكثيرة الأضرار .

ومنه ما وقع به الرشيد إلى عامله على مصر ، وقد ظهرت منه بعض بوادر التخريب والفساد المالي : "احذر أن تخرب خزانتي ، وخزانة أخي يوسف ، فـــيأتيك مني مالا قبل لك به ، ومن الله أكثر منه "[١١٥].

وهو توقيع أشد وأحد من سابقه ، ويبدو انفعال الرشيد فيه واضحا ، مما يعطي دلالة واضحة على وقوف الخلفاء العباسيين بشدة وعنف في وجه مظاهر الفساد ، وتعقبها حيثما كانت.

- ومن ذلك ما وقع به المنصور إلى عبدالحميد صاحب خراسان :" شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت عن العامة ، فتأهب لفراق السلامة "[١١٦].

والتوقـــيع يحمل بين أعـطافه تهديدا شديدا ؛ بسبب خروج هذا العامل على نظام الدولة ، ولم يكن توقيع المنصور هنا غريبا ، فقد عرفت عنه الشدة واليقظة والبأس والثبات .

ومنه : ما وقع به الرشيد إلى عامله على السند حين ظهرت العصبية هناك :" كل من دعا إلى الجاهلية ، تعجل إلى المنية "[١١٧].

فالرشيد يرفض الرجوع إلى الوراء إلى عهد العصبيات البغيضة، والتمزق الذي عاشته الدولة أيام الأمويين، ويتوعد أي هامة تعلو داعية إلى الفرقة بالموت العاجل، والفناء المبرم.

ومنه ما وقع به الفضل بن سهل في قصة قوم يفسدون في الأرض بقطع الطريق :" إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي

الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"(١١٨).

وقد جاء التوقيع آية من كتاب الله عز وجل ، وفيها إعلان صريح عن حكم الله فيمن يرتكب هذا الفعل الإجرامي، الذي يؤدي إلى ترويع الناس، وسلب أموالهم ، وبهذه الشدة والغلظة في معاملة المفسدين، تقل غدراتهم، وتهدأ ثوراتهم، وتمحى من الأرض آثارهم .

وبهذا الأسلوب الصارم استطاع العباسيون أن يحكموا قبضتهم على رقبة كل مفسد و مخالف، وينزلوا به العقاب الرادع، مما كان له الأثر الواضح في استقرار الأمور، وهدوء الأجواء .

ثالثا : التأكيد على إعلاء قيمة الحق والعدل .

١ـ المحافظة على مبدأ الحق والعدل :

بالحق والعدل تبنى الأمم، وتتقدم الشعوب، وبغيرهما تصبح الأمم هباء، والشعوب حطاما، لذا حرص الخلفاء العباسيون على إعلاء هامتهما، والقيام على حراستهما، تأكيدا على قوة الدولة، ومسيرتها في الطريق الصحيح .

ومن ذلك ، ما وقع به المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله:" لو كان عيسى عاملكم(١١٩)،قدناه إلى الحق، كما يقاد الجمل المخشوش "(١٢٠). فالمهدي يؤثر الرجوع إلى الحق والفضيلة وعدم

التفريط فيهما، ولو أن عيسى ولده تهاون في القيام بواجبات الحـــق والعدل، لرده إليه بعنف وشدة ...

ومنه ما وقع به المأمون في قصة متظلم من حميد الطوسي :" يا أبا غَنْم، لا تغتر بموضعك من إمامك ، فإنك وأخس عبيده في الحق سيّان "[١٢١].

فمعرفة الحاكم ، وأمن جانبه ، ليست مدعاة إلى أن يطلق الإنسان يده في ظلم الناس ؛ اتكالا على هذه المعرفة، كما يفعل بعض المخدوعين، وقد جاء توقيع المأمون– هنا– قاطعا لرجاء كل متسلق، وواضعا الحق في موضعه .

ووقع المأمون في قصة متظلم من أبى عيسى أخيه :" فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ" [١٢٢].

فتوقيع المأمون يفصح عن وجوب التزام مبدأ الحق حتى مع أخيه، فلن يكون النسب الجامع بينهما سببا في إضاعة الحق، فالحق أولاً، ثم النسب آخرا، وفي التوقيع دلالة قوية على إعلاء قيمة الحق ، والحفاظ عليه لدى خلفاء بني العباس .

ووقع المأمون – كذلك – في رقعة متظلم من أبى عباد :" يا ثابت ، ليس بين الحـــق والباطل قرابة **لله**[١٢٣].

فالحق أبلج لا تمويه فيه ولا خداع، ولا يختلط بالباطل، إذ ليست بينهما صلة أو قرابة.

ووقع الرشيد في قصة متظلم :" لا يُجاوَز بك العدل ، ولا يقصّر بك دون الإنصاف لله[١٢٤].فليس هناك من يأخذ حق غيره ، أو يؤخذ منه حقه في ظل دولة تقدس الحق ، وترفع لواءه .

١ـ اتباع أسلوب المكاشفة :

أسلوب المكاشفة والمصارحة من الأساليب الناجحة بين الحكام والمحكومين ، وهو دليل على شفافية الحاكم ، ورحابة صدره أمام رعيته .

وقد حفلت التوقيعات في العصر العباسي الأول بأطياف من هذه المصارحات والمكاشفات التي تدل على وضوح مسلك الخلفاء، وسلوكهم مع الرعية سلوكا قويما.

– ومن ذلك ما وقع به طاهر بن الحسين حين رفع إليه مستمنح رقعة ، وكذب في عدد عياله :" لا جواب لكذاب ، ثم صدق في ذكر عددهم فوقع إليه " الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ "[١٢٥]. وأمر له بصلة .

فانظر إلى هذه المصارحة، التي دفعت طاهر بن الحسين لوصم المستمنح أولا بالكذب حين كذب، ثم وصفه ثانيا بالصدق حين صدق في عد أولاده .

ومنه ما وقع به المأمون في رقعة رجل سعى إليه ببعض عماله :" قد سمعنا ما ذكره الله عز وجل في كتابه ، فانصرف رحمك الله "[١٢٦].

فالمأمون هنا – يقف موقفا صريحا وواضحا من السعاة ، ويصرف الرجل من أمامه مدحورا ، مذكرا إياه بقول الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "(١٢٧).

ومنه ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي في قصة رجل سأل ولاية :" لا أولي بعض الظالمين بعضا "(١٢٨).

فالتوقيع فيه مصارحة حادة ، وهي تتجلى في رد جعفر على سائل الولاية بهذا الرد العنيف ، الذي يرفض إعطاءه شيئا من الولاية ، لثبوت تورطه في الظلم والجور .

وبذلك نكون قد وقفنا على أبرز وأهم الاتجاهات الموضوعية لفن التوقيعات في العصر العباسي الأول ، وهي موضوعات تجسد قوة الدولة ، وحرص رجالها على الالتزام بمبادئ الحق والعدل والإنصاف.

هوامش المبحث الثاني

١) ينظر : العقد الفريد ، جـ ٤ / ١٥٧ .

٢) التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص / ٣ .

٣) – يراجع : مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ١٣ ، العدد ، فبراير ٢٠٠٨، من مقال بعنوان : فن التوقيعات الأدبية فى العصر الإسلامي والأموي والعباسي للدكتور / حمد الدخيل / ١١ .

٤) ينظر : خاص الخاص ، للثعالبي / ٨٦.

٥) العقد الفريد ، جـ ٤ / ٢٠٥، ٢٠٦، و جمهرة رسائل العرب ، جـ ١ / ٥٣٠ .

٦) جمهرة رسائل العرب ، جـ ١/ ٥٣٠ .

٧) السابق ، جـ١ / ٥٣٠ .

٨) سورة الشعراء ، آية : ٢١٦ .

٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ١ / ٥٣١ .

١٠) صحابي جليل ، توفى عام ٣٦ هـ .

١١) العقد الفريد ، ج٤ ، ٢٠٦ ، جمهرة رسائل العرب ، ج١ / ٥٣١ .

١٢) المصدران السابقان ، الجزء والصفحة .

١٣) هو مالك بن الحارث النخعي ، تابعي ، مات عام ٣٨هـ .

١٤) جمهرة رسائل العرب ،ج ١/ ٥٣١ .

١٥) هو الحصين بن المنذر بن الحارث الرقاشي ، من سادات ربيعة ، توفى عام ٩٧هـ .

١٦) صفين : موضع قريب من الرقة ، وفيه وقعت هذه المعركة بين الإمام على ومعاوية ٣٧هـ .

١٧) جمهرة رسائل العرب ، جـ١ / ٥٣١ .

١٨) جمهرة رسائل العرب ،جـ٢ / ٤٩١ . معناه : عش رجباً بعد رجب ، ورجب كناية عن السنة ؛ لأنه يحدث بحدوثها ، فكأنه قال : عش دهراً تر عجباً ، وهو محمول على معنى الشرط ، أي : إن تعش تر عجباً .

١٩) السابق ، جـ ٢ / ٤٩٢ .

٢٠) السابق ، جـ ٢ / ٤٩٢ .

٢١) السابق ، جـ٢ / ٤٩١ .

٢٢) العقد الفريد ، جـ ٤ / ٢٠٧ ، جمهرة رسائل العرب ، ج ٢ / ٤٩٢ .

٢٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٢ / ٤٩٢ ، والتوقيع جزء من الآية : ٢٦ من سورة المائدة .

٢٤) السابق ، والصفحة .

٢٥) السابق ، جـ ٢ / ٤٩٢ .

٢٦) العقد الفريد ، جـ ٤ / ٢٠٧ ، جمهرة رسائل العرب ، جـ٢/ ٤٩٣ .

٢٧) جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ٤٩٣ .

٢٨) السابق والصفحة : والسقط بالتحريك ، والسقاط بالكسر : الخطأ فى الحساب والقول .

٢٩) السابق ،جـ٢ / ٤٩٥ . والصائفة : هي معركة عمورية التي وقعت بين الأمويين بقيادة مسلمة وبين الروم بقيادة شمعون

حاكم عمورية سنة ٨٩ه، وانتهت بانتصار المسلمين وفتح عمورية.

٣٠) ينظر : جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ٤٩٥ ، والتوقيع الثاني بالآية : ٣١ من سورة هود .

٣١) السابق والصفحة .

٣٢) ينظر هذا التوقيع وما بعده في : جمهرة رسائل العرب ،ج ٢ / ٤٩٦ .

٣٣) العقد الفريد ، جـ ٤ / ٢٠٩ ، جمهرة رسائل العرب ، جـ٢ / ٤٩٧ .

٣٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٢ / ٤٩٧ .

٣٥) السابق ، جـ ٢ / ٤٩٧ .

٣٦) السابق والصحفة ،والتوقيع جزء من الآية : ٩١ من سورة التوبة

٣٧) العقد الفريد ، جـ ٤ / ٢١٧ .

٣٨) المصدر السابق والصفحة ، والتوقيع يشير إلى قول الله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما " .

٣٩) يراجع : مجلة جامعة ام القرى ، المجلد ١٣ ، العدد : ٢٢ فبراير ٢٠٠٨ م من مقال للدكتور / حمد الدخيل .، ص١٤ .

٤٠) بلاغة التوقيعات ، د / بدر هميسة / ٢

٤١) ينظر : مسند البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين، وغيره، طبع مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م ـ ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.

٤٢) هو أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، ولد سنة ١٠٤ هـ ، ولي الخلافة ، وظل فيها حتى مات سنة ١٣٦ هـ، ينظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٥/ ٤٣ ، دار الحديث القاهرة ٢٠٠٦م

٤٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٦٧.

٤٤) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، ولد عام ١٥٠ هـ ، وكان وزيرا للرشيد ، وهو أحد مشهوري البرامكة ، وكان كاتبا بليغا ، قتل عام ١٨٧ هـ العقد الفريد ، لابن عبدربه ، جـ١/ ٥٣ ،ط١، دار الإمام علي للطباعة والنشر ١٩٩٢م

٤٥) العقد الفريد ، جـ ٢/ ٣١٢.

٤٦) هو أبو محمد الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسي ولاه المأمون نائبا عنه في بغداد سنة ١٩٩هـ ، ثم اتخذه وزيرا له بعد موت أخبه الفضل ، تزوج المأمون بابنته بوران سنة ٢٠٧هـ ، وظل موفور الكرامة حتى مات سنة ٢٣٦هـ بسرخس (وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، جـ٢/ ١٢٠ ، طـ١ دار صادر بيروت)

٤٧) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤/ ٣٨٩ .

٤٨) هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي ، ولد بالحميمة سنة ١٠١هـ ، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ ،وظل خليفة حتى توفي سنة ١٥٨هـ (العقد الفريد لابن عبد ربه جـ١/ ٧٧)

٤٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٧٠ .

٥٠) سورة الجن ، الآية : ١٠ .

٥١) هو محمد المهدي بن المنصور ، ولد عام ١٢٦ هـ بالحميمة من أرض الشراة ، تولى الخلافة وسنه خمسة عشر سنة ، تزوج من

ريطة بنت السفاح سنة ١٤٤هـ ، وكان لا يشرب الخمر ، صاحب حياء وعفو ، توفي سنة ١٥٨هـ(الدولة العباسية ، الشيخ محمد الخضري / ٨٧ وما بعدها ، ط٢، مكتبة الإيمان المنصورة ٢٠٠٦م)

٥٢) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤/ ٣٧٣ .

٥٣) هو عبدالله بن هارون الرشيد ، سابع الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ ، وفي عهده قامت نهضة علمية عظيمة ، توفي في بندنوب ، ودفن في طرسوس سنة ٢١٨هـ(الأعلام جـ٤/ ١٤٢)

٥٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٧٨ .

٥٥) السابق ، جـ ٤ / ٣٨٠ .

٥٦) أهل السواد : أهل القرى التي تقع تحت سلطانه (اللسان ، جـ٣، ٢٢٥، مادة: سود) .

٥٧) جمهرة رسائل العرب ،جـ ٤ / ٣٨١ .

٥٨) فارسي الأصل ، أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠هـ ، وكان وزيرا له ، ومدبرا أمره ، وولي عهده ، لقب بذي الرئاستين : رئاسة الحرب والقلم ، ولاه المأمون على المشرق كله سنة ١٩٦هـ ، وكان ذا رأي حكيم ، دبر المأمون له حتي قُتل (العقد الفريد ، جـ١/ ١٥١)

٥٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٨ .

٦٠) السابق والصفحة .

٦١) لسان العر ب، جـ٣/ ٣٥٤(مادة : قصد) .

٦٢) سورة الأعراف ، من الآية :٣١.

٦٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٤ .

٦٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٧٢ . والحباء : هو العطاء .

٦٥) السابق ، جـ ٤ / ٣٦٧ .

٦٦) استوصل ' أي طلب صلة من مال .

٦٧) جمهرة رسائل العرب ،جـ ٤ / ٣٨١ .

٦٨) ينظر خبره في : البداية والنهاية ، جـ ٥ / ١٠ / ٢٠٣ .

٦٩) السابق ، جـ ٤ / ٣٨١ .

٧٠) السابق ، جـ ٤/ ٣٨١ .

٧١) انظر ديوان أبى نواس / ١٢١ ، دار صادر – بيروت – لبنان ٢٠٠٨ م .

٧٢) هو عمرو بن مسعدة بن صول ، كان كاتب توقيعات لجعفر البرمكي ، وكان لسناً بليغا ، توفى عام ٢١٧ هـ (وفيات الأعيان ، جـ١ / ٤٩٢) .

٧٣) جمهرة رسائل العر ب ، ج٤ / ٣٨١ .

٧٤) السابق ، ج٤ / ٣٨٣ .

٧٥) الشعب : ما انفرج بين جبلين .

٧٦) جمهرة رسائل العرب ،ج ـ ٤ / ٤٣٨ .

٧٧) هو هرثمة بن أعين نائب الرشيد على خراسان .

٧٨) السابق ، جـ٤ / ٣٨٨ .

٧٩) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي ، ولد بالري سنة ١٤٥هـ ، ولاه أبوه المغرب كله من الأنبار إلى أطـراف افريقيا سنة ١٦٤هـ

، بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ ،ولم يزل خليفة حتى مات سنة ١٩٤هـ(الدولة العباسية ، الخضري / ١٠١هـ)

٨٠) الخاتم : عبارة عن ديوان يجلس فيه الكتاب القائمون على إنفاذ كتب السلطان ، والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم . (مقدمة ابن خلدون / ٢٩٧) .

٨١) العقد الفريد ، جـ٢ / ٣١٢ .

٨٢) جمهرة رسائل العر ب ، جـ ٤/ ٣٦٧ ، والتوقيع جزء من الآية: ٣٤ من سورة فصلت .

٨٣) السابق ، جـ ٤ / ٣٦٩ .

٨٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٣٧٠ . .

٨٥) السابق ، جـ ٤/ ٣٧٤ .

٨٦) السابق والصفحة ، والبيات : من بيت العدو ، أي : أوقع بهم ليلاً ، والاسم : البيات .

٨٧) السابق ، جـ ٤/ ٣٧٨.

٨٨) السابق ، جـ ٤ / ٣٨٠ .

٨٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٤. والتوقيع هنا تذييل الآية : ٣٨ من سورة الرعد

٩٠) السابق والصفحة .

٩١) الصرورة : الذي لم يحج .

٩٢) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٤.

٩٣) السابق والصفحة . والوجاء ما يقطع الشهوة.

٩٤) السابق ، جـ٤/ ٣٨٥.

٩٥) السابق ، جـ٤/ ٣٨٥.

٩٦) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٢

٩٧) السابق ، جـ٤ / ٣٨٤

٩٨) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، البطليموسي / ١١٩٥

٩٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٠

١٠٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٦٨ . والتوقيع مستوحى من حديث : "كما تكونون يولى عليكم " وهو حديث ضعيف ، ينظر : السنن الكبير للبيهقي تحقيق التركي طبع مركز هجر

للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ ٢٠١١ م.

١٠١)السابق ، جـ٤/ ٣٧٤

١٠٢)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٦٨ .

١٠٣)من القواد الشجعان المعروفين بالبلاغة في عهد المأمون ، ولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥هـ ، ولم يلبث أن مات سنة ٢٠٧ هـ (العقد الفريد جـ٢/ ١٦٧)

١٠٤)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٩٠

١٠٥)سورة البقرة ، الآية :١٧٩

١٠٦)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٤

١٠٧)السابق ، جـ٤/ ٣٨٩

١٠٨)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٨

١٠٩)السابق ، جـ٤/ ٣٧٦. والبطن من الأرض: المطمئن منها

١١٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٦٧،والتوقيع جزء من الآية :٥١من سورة الكهف .

١١١)السابق ، جـ٤/ ٣٧٨،والتوقيع جزء من الآية :١٤من سورة هود.

١١٢)السابق ، جـ٤/ ٣٦٧،والتوقيع جزء من الآية :١٤من سورة هود.

١١٣)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٨،.

١١٤)السابق ، جـ٤/ ٣٨٣. وبعض المصادر تعزى هذا التوقيع إلى ولده جعفر

١١٥)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٤،.

١١٦)السابق ، جـ٤/ ٣٦٨،.

١١٧)السابق ، جـ٤/ ٣٧٥،.

١١٨)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٨٨. والتوقيع آيه : ٣٣ من سورة المائدة

١١٩)عيسى: هو عيسى ولد المهدي

١٢٠)جمهرة رسائل العرب، جـ٤/ ٣٧٢ والخشاش على مثال كتاب، وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب، لينقاد ،وخششت البعير: جعلت في أنفه الخشاش

١٢١)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٨.

١٢٢)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٨. والتوقيع آية : ١٠١ من سورة المؤمنون

١٢٣)السابق والصفحة.

١٢٤)السابق ، جـ٤/ ٣٧٥.

١٢٥)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٩٠. والجزء الأخير من التوقيع مأخوذ من الآية ٧١ من سورة البقرة

١٢٦)العقد الفريد، جـ٢/ ٣١٢

١٢٧)سورة الحجرات، من الآية رقم :٦

١٢٨) جمهرة رسائل العرب، جـ٤/ ٣٨٥. والتوقيع مستشف من الآية : ١٢٩ من سورة الأنعام .

المبحث الثالث
التصوير الفني في توقيعات العصر العباسي الأول

أولا : فنية الألفاظ :

يوجد اتصال متين بين أجزاء العمل الأدبي، مما يجعله يمثل وحدة لا تقبل التجزئة، وعلى الرغم من ذلك، فنحن نضطر أحيانا إلى أن نتكلم عن هذه الأجزاء كأنها منفصلة ، حتى نستطيع إصدار أحكامنا النقدية عليها بموضوعية .

وألفاظ اللغة ـ وهي جزء أصيل من أجزاء العمل الأدبي ــ كالكائن الحي ، الذي يتغير ويتطور ، ويتلون حسب الظروف والأحوال ، التي تحيط بكاتب التوقيع الأدبي ، فالموقع يختار من الألفاظ ما يدل على المعنى الذي يريده أحسن الدلالة ، وما يجعله مناسبا ومتناسبا مع المقام ، وبذلك يصيب الهدف ، ويحقق الغاية منه .

وفنية اللفظ في التوقيع تتمثل في : دقة اختياره ، ودقة الاختيار تستدعي من الموقع أن يكون ذا بصر بمواقع الألفاظ ، بحيث تعبر كل لفظة عن شعوره ، وتجلو فكرته ، وتكشف الخيال الذي يتراءى له ، وتنجم مع التركيب الذي تقع فيه (١) .

ولعل الصواب حين نتكلم عن فنية الألفاظ ــ في توقيعات العصر العباسي الأول – أن ننظر إلى العناصر اللغوية التي يتكون منها نسيج هذه التوقيعات، وأن نحاول تقسيمها إلى أنواع بقدر المستطاع ؛ لأن اللغة لا

تقدم الموضوع تقديما حرفيا ، وإنما تقدمه تقديما إبداعيا عن طريق ما تنطوي عليه هذه اللغة من تكثيف وتعدد في الدلالة (٢)

لهذا يمكننا أن نقسم العناصر اللغوية في فن التوقيعات إلى ما يلي :

(أ) : **التوقيع من خلال توظيف عناصر التناسب** :

التناسب :هو حاله من التناغم بين العناصر اللغوية التي يتكون منها التوقيع ، وهذا التناسب كما يتحقق عن طريق التضاد و التنافر بين الألفاظ كما في الطباق ، ويتحقق أيضا عن طريق الألفة والتآخي بينهما كما في مراعاة النظير، وإليك البيان :

١ـ الطباق :

الطباق أحد عناصر التناسب المهمة التي تجلت في توقيعات خلفاء بني العباس ، وكبراء دولتهم .

وتبدو أهمية الطباق : في أنه يحدث مفارقة عقلية مثلا ، أو لونا من التناقض الواقعي بين الحالة الراهنة، وما ينبغي أن يكون، وذلك لون من النتائج التي تتوالد من الصدام بين البنيتين المتضادتين في النص (٣) .

ومن نماذج الطباق في توقيعات العصر العباسي الأول :

ما وقع به أبو العباس السفاح إلى ساع(٤) : تقربت إلينا بما باعدك عن الله ولا ثواب لمن خالف الله.

فقد وقع الطباق في توقيع السفاح بين الفعلين (تقرب ، ساعد) وبين هذين الفعلين لون من التناسب عن طريق التضاد والتصادم بين بنيتهما .

وقد أبرز الطباق ـ هنا ـ لونا من التناقض من خلال ما يوجد في الكلام من مفارقة غريبة ، تظهر في توظيف الفعلين ‹تقرب ـ وباعد› في نقيض ما ينبغي أن يوظف فيه كل منهما ، فقد ظن هذا الساعي أن سعايته تدنيه وتقربه من أولى الأمر، فإذا بها تأتي بالإبعاد ، وهو أمر لم يتوقعه ، ومفاجأة لم يستشرف ظنه إليها .

ومنه ما وقع به المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه ‹٥› : أنا ساهر وأنت نائم .

فقد لمع الطباق بين كلمتي ‹ساهر ـ نائم› في توقيع المهدي ، وبين هذين الاسمين لون من التناسب مصدره : التضاد ، والتطابق ـ كما هو ظاهر ـ يعري حقيقة تخجل والي خراسان ، وتصمه بأمر لا ينبغي أن يوصم به من كان في مثل موضعه، إنه النوم الذي يكنى به عند الغفلة، والتراخي في القيام بمهام عمله ، بينما يبدو الخليفة المهدي نابها يقظا ،عينه تكلأ الولاة ، ونظره يعم الجميع .

ومنه ما وقع به الرشيد في قصة البرامكة ‹٦› : أنبتتهم الطاعة ، وحصدتهم المعصية .

فتوقيع الرشيد ـ هنا ـ غاية في دقة اختيار الألفاظ، حيث جاء الهيكل العام للتوقيع مبنيا على الطباق- الذي يعد أحد عناصر التناسب المهمة- والطباق ماثل بين الفعلين ‹أنبت ، وحصد› وبين الاسمين‹ الطاعة ـ والمعصية› .

والطباق ـ هنا ـ يمثل جوا من المفارقة العجيبة حيث تبدو الطاعة والمعصية فيه قوتين فاعلتين ، الأولى تنبت وتبني ، والثانية تحصد وتهدم ، وهي مفارقة رائعة تعكس فساد ما بيته البرامكة، وتجسد ، وانقلاب الأمور عليهم، واستقرارهم في السجون، بعدما كانوا يرفلون في الحبور ،ويختالون في القصور .

وفي توقيعات العصر العباسي الأول أمثلة كثيرة للطباق يضيق المقام عن ذكرها هنا، إذ لا يكاد يخلو توقيع من الاتكاء عليه، مما يدل على قوته وجاذبيته في تحقيق مراد الموقعين به في هذا العصر .

٢ـ مراعاة النظير :

يأتي فن مراعاة النظير في المرتبة الثانية من عناصر التناسب في الكلام ، وهي سمة بارزة في توقيعات رجال العصر العباسي الأول.

ومعناه : أن يكون الكلام مناسبا ومتناسبا وملائما ، بحيث لا توجد فيه لفظة نافرة ولا كلمة شاذة ، بل كل كلمة تأتلف مع جاراتها ، وترتبط بها ، مع كون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ، ومناسبة له ،فإذا كان المعنى فخما : كان اللفظ جزلا ، وإذا كان المعنى رشيقا : كان اللفظ رقيقا ، وإذا كان المعنى أعرابيا كان اللفظ غريبًا، وإذا كان المعنى مولّدا : كان اللفظ مستعملا (٧) .

وقد امتازت توقيعات العصر العباسي الأول بالدقة في اختيار الألفاظ التي تناسب المعاني التي قصدوا إليها ، وهو ما يجسد تمكنهم من ناصية

اللغة، ونفرتهم من أن يوصم كلامها بالتفكك، أو عدم الترابط بين أجزائها .

ومن جميل توقيعات المهدي في هذا المقام : ما وقع به في قصة متظلمين شكوا بعض عماله (٨) : لو كان عيسى ـ ابن المهدي ـ عاملكم ، قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش (٩) .

فقد راعى المهدي ـ في توقيعه ـ التناسب والتآلف بين ألفاظ (عامل ـ ويقاد ـ والجمل المخشوش) فهي ألفاظ من وسط فني واحد، وهو الوسط البدوي أو الأعرابي، الذي يناسبه اللفظ الغريب ، وجاءت كلمة (المخشوش) دقيقة ومعبرة في مكانها، وقد أدى اجتماع هذه الألفاظ المتناسبة إلى رسم هذه الصورة البدوية الرائعة ، وتوظيفها توظيفا جيدا ، فيه إعلان صريح عن تعظيم خلفاء بني العباس لقيمة العدل في دولتهم كما أشرنا إلى ذلك في الدراسة الموضوعية .

ومنه ما وقع به (الرشيد) إلى صاحب خراسان ، وقد ظهرت عنده بوادر الفتنة (١٠) : داو جرحك لا يتسع .

فالرشيد يجمع بين لفظي (داو ـ جرحك) وهما متناسبان ؛ لأنهما من واد واحد كما يقول البلاغيون .

وتبدو دقة التعبير ـ هنا ـ في أن الرشيد انتزع لفظين من وسطهما الأصلي ـ وهو مداواة الجرحى ـ واستعملها في وسط آخر بعيد الصلة عن الأول ـ

وهـو إخمـاد الفتنـة ــ وكـأن الحالـة الراهنـة ، والرغبـة في سرعـة معالجـة الأخطاء ، والقضاء على الفتن هي التي وجهته إلى ذلك ٠

وحين ‹ يترك السباق حقل فعاليته إلى فاعلية أخرى : تتحقق المفارقة ؛ لأنها تنبت من تهميش التوقعات ، وتفصيل المفاجئ »(١١)

ومنه ما وقع به جعفر بن يحي البرمكي في رقعة رجل شكا بعض خدمه (١٢): ‹خذ بأذنه ورأسه؛ فهو مالك›.

فالجمع في الكلام بين ذكر الأذن والرأس في توقيع جعفر البرمكي فيه تناسب وترابط ، فكل لفظة منه تأخذ بعنق جارتها ، ولما كان المعنى الذي يقصده البرمكي قريبا وسهلا ـ وهو ضرورة أن يستوفي الرجل مطلوبه مـن خادمـه دون شـكاية ــ ناسـب ذلـك أن يعـبر عنـه بألفـاظ سـهلة ومستعملة .

والتوقيع هنا يجسد لونا من التناقض الغريب، حين يظهر السيد ‹مالـك الرقبة› في صورة غير متوقعة ، فإذا كان المنتظر غالبا أن يشكو العبد سيده لإثقاله عليه في المطالب ، فإن ما وقع هو العكس ،وهو لون من التناقض الغريب الذي جاء عن طريق التناسب والتلاؤم بين الألفاظ .

وتوجـد في توقيعـات العصر العباسي الأول نـماذج عديـدة لهـذا اللـون البلاغي ، أكتفي بما ذكرته هنا في الدلالة عليها ، وتوجيه العزم إليها .

(ب) : **التوقيع من خلال توظيف عناصر التخييل و الإيهام** :

توجد بعض العناصر اللغوية التي تقدم التوقيع من خلال التخييل والإيهام ، ولعل من أهم هذه العناصر التي ظهرت بكثرة في توقيعات رجال العصر العباسي الأول ما يلي :

١ـ الجناس :

الجناس- كما نعلم ـ صبغ بديعي له أثر كبير في التعبير، حيث يعمل على إبراز المعاني وتوضيحها .

وأقرب تعريف له : أنه التشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى (١٣) .

وسوف ندرك أن للجناس مذاقه الخاص، وطعمه المتميز في كل التوقيعات التي توشت به في العصر العباسي الأول .

* ومن ذلك ما وقع به المأمون إلى عامل شكاه أهل عمله (١٤) : إن آثرت العدل، حصلت على السلامة، فأنصف رعيتك من هذه الظلامة ، فالجناس واقع بين كلمتي (السلامة والظلامة)

وهو جناس غير تام (لاحق) لاختلافهما في أحد الحروف ، وهما : السين ، والظاء ، وهما متباعدان مخرجا .

وقد قام الجناس – هنا – بدور تخييلي أفضي إلى انقباض نفس المخاطب أو القارئ من الظلم بشتى صوره ، وهو أمر طبعي ، باعتباره انفعالا ناتجا عن عملية التخييل والإيهام التي يحملها الجناس

* ومنه ما وقع به الفضل بن يحي البرمكي إلى بعض أهل الشر : **بئس الزاد إلى المعاد : التعدي على العباد** (١٥) .

فقد وقع الجناس في هذا التوقيع بين كلمتي : المعاد ، والعباد، وهو جناس غير تام ، وقد ساعد على تصوير قبح بعض الشرور ، كالعدوان على الخلق ، وجعله غاية في الذم يوم الورود على رب العباد .

*ومنه ما وقع المهدي في رقعة يوسف الرومي (١٦) حين ظفر به بخراسان : **لك أماني، ومؤكد أيماني** (١٧)

فالجناس في التوقيع لامع بين كلمتي : أماني ، وأيماني ، والأولى جمع ، ومفرده : أمنية (بتخفيف الياء) والثانية جمع ومفرده : يمين (القسم) وقد عمل الجناس على إبراز لون من التناقض، فيوسف الرومي له أمان ومطامع في الرغبة في العفو عنه، والمهدي له أيمان مؤكدة على قتله وقتل كل من سلك مسلكه من المفسدين والمرجفين في أطراف البلاد .

ولعل مكمن القوة التي يمثلها الجناس في هذا التوقيع : هو أن السامع يخيل إليه من أول وهلة أن صاحب التوقيع قد كرر اللفظ الأول عندما نطق اللفظ الثاني المجانس له، فإذا انتبه المتلقي بعد هنيهة إلى كون اللفظين مختلفين في المعنى، وفي بعض الحروف، كان لهذه الانتباهة أثرها في نفسه، خاصة إذا كان اللفظان متجانسان يشيران إلى لون من التناقض، إذ ذاك تكون المفاجأة أكبر، والأثر أقوى .

ولخلفاء الدولة العباسية، ومواليهم من البرامكة، وكبار الكتاب في الدولة توقيعات كثيرة تحمل كثيرا من شواهد هذا اللون التخييلي، وفيما ذكرته هنا غناء عن الإطالة بذكرها (١٨) .

٢ـ التورية :

التورية عنصر مهم من عناصر التخييل والإيهام ، وهو فن بديعي له سحره وجماله في فن التوقيعات ، ويكون مقبولا حين يرد في الكلام سلسا طيعا ، بعيدا عن التكلف والابتذال ، بحيث يضيف معنى جديدا ، ويوحي بشيء طريف .

وإذا كان الأدباء في العادة يستخدمون التورية باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير غير المباشر ، حين يخشون على أنفسهم البطش أو الفتك إذا ألقوا بالكلام صريحا ، فإن هذه العلة منتفية عند خلفاء بني العباس ، وكبار رجال دولتهم ، فقد كانوا يستخدمونها لأغراض أخرى خادعة ماكرة تتجلى من خلال كل موقف على حدة .

*ومن ذلك ما وقع به المهدي إلى صاحب خراسان حين علم بأمر قبل علمه هو به : أنا ساهر، وأنت نائم (١٩) .

نجد التورية أولا في لفظ (ساهر) حيث إنه لفظ له معنيان، أحدهما : قريب غير مقصود ، وهو عدم النوم ليلا، والآخر بعيد وهو المقصود، وهو اليقظة والإحاطة بشئون مملكته، ويبدو عنصر الإيهام و التخييل هنا في أن الموقع أورد الكلمتين في سياق لغوي فيه كثير من المكر والخداع، مما

جعل القارئ أو السامع يتوهم أن السهر والنوم حقيقيان، ثم يكتشف حقيقة المعنى بعد طول تأمل وفكر ، وفي ذلك من السخرية اللاذعة ما فيه .

* ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب المدينة : ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن ؛ فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد ، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد (٢٠) .

نجد التورية في هذا التوقيع في عدة كلمات ، وهي (رجليك ، ورقاب ، والبطن) فكلمة رجليك لفظ له معنيان: أحدهما : قريب غير مقصود، وهما الرجلان الحقيقيتان، والآخر: بعيد مقصود وهو القوة والتمكن منهم والسيطرة عليهم .

وكلمة (رقاب) لفظ له معنيان ، أحدهما : قريب غير مقصود وهو الأعناق الحقيقية، والآخر : بعيد مقصود، وهو وجهاء القوم وسادتهم .

وكلمة (البطن) أيضا لفظ له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود ، وهو البطن المعروف الذي يقابل الظهر في الإنسان والحيوان ، والآخر : بعيد مقصود ، وهو ما دون القبيلة من الناس (٢١)

والتورية هنا فيها التخييل والإيهام الذي يخيل إلى السامع أن الأرجل والرقاب والبطون حقيقية، ثم لا يلبث أن يفهم المعنى الخفي المقصود ، وفي ذلك من المكر والدهاء والتوجيه غير المباشر ما فيه ، حيث كان أهل المدينة يمثلون شوكة قوية تؤرق جانب العباسيين .

* ومنه ما وقع به المأمون في رقعة مولى طلب كسوة :لو أردت الكسوة : للزمت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد ، فحظك الرؤيا (٢٢) .

فكلمة (الرقاد) لفظ له معنيان أحدهما : قريب غير مقصود، وهو النوم، والآخر: بعيد مقصود، وهو الكسل وترك العمل، وهي تورية مرشحة ؛ لأن التوقيع قد ذكر فيه ما يرشح المعنى القريب و يؤكده ، وهو ذكر الرؤيا.

وقد أدت التورية هنا دورا مهما من خلال إدخال عنصر التخييل والإيهام ، وذلك حين بالغ المأمون و أوغل في تخييله بترشيح التورية ، وقد اقترب هذا الترشيح بها من المعنى القريب لكلمة (الرقاد) حتى وكأن هذا المولى قد أصبح نائما نوما حقيقيا نبصره ،وهو لون من المبالغة الجميلة التي تحسن في مثل هذا المقام (٢٣) .

(جـ) : **النزوع إلى التراث** :

الرغبة في النزوع إلى التراث إحدى فنيات الألفاظ في توقيعات العصر العباسي الأول .

وقد ذكر بعض الباحثين أن التراثية تعني : أن تكون الألفاظ مستقاة من التراث ، بحيث تتميز في العبارة بقدمها لكثرة دورانها في تعبيرات القدماء (٢٤) .

ونحن عندما نقلب الطرف في التوقيعات العباسية في عصرها الأول ، نجد فيها كثيرا من الألفاظ المستقاة من البيئة العربية القديمة ، وهو ما

يجسد عن رغبة الموقعين – في هذا العصر- في أن يجعلوا الماضي حيا في الحاضر، وممتدا فيه؛ وذلك لخلق لون من الاتصال والترابط الفني بينهما٠ ولعل تمثل البيئة العربية القديمة بإيراد بعض ألفاظها ، وصورها ، هو الملمح التراثي المهم الذي ظهر بصورة واضحة في توقيعات العباسيين في عصرهم الأول .

* ومن النماذج الدالة على ذلك : ما وقع به الخليفة المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله

" لو كان عيسى عاملكم ، قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش " (٢٥) .

فكلمة (المخشوش) من الكلمات التي شاع استعمالها في البيئة العربية القديمة ، والخشاش : على مثال كتاب ، وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب لينقاد ، وخششت البعير : جعلت في أنفه الخشاش(٢٦).

ووقع الرشيد إلى عامله على فارس : كن مني على مثل ليلة البيات (٢٧) . فكلمة (البيات) في توقيع الرشيد من الكلمات العربية التي شاعت على ألسنة الناس قديما ، والبيات مأخوذ من بيت العدو : أي قصدهم ليلا من غير علم فأخذهم بغتة .

وبيت الأمر : عمله ليلا ، أو دبره ليلا (٢٨) و وفي التنزيل : "والله يكتب ما يبيتون ..." (٢٩)

* ومنه ما وقع به المأمون في رقعة عامل شكاه أهل محلته : "إن آثرت العدل ، حصلت على السلامة ، فأنصف رعيتك من هذه الظلامة "[٣٠].
فالرعية و الظلامة لفظان درج استعمالهما كثيرا في البيئة العربية القديمة ، والرعية : هي عامة الناس الذين عليهم وال يرعى مصالحهم وشئونهم ، والظلامة : هي المظلمة وهي ما يطلبه المظلوم أو يشكو منه .
والتركيز على هذين اللفظين في التوقيع ـ هنا ـ يجسد لونا من الإلحاح على ربط الماضي بالحاضر ، وجعله ممتدا فيه .
وتوجد شواهد كثيرة تدل على ذلك يفطن إليها من راجع التوقيعات في هذا العصر [٣١]

(ى) : **اليسر والوضوح** :
الاتجاه نحو الصياغة التي تتصف باليسر والوضوح ـ في الأعم الأغلب ـ تعد إحدى الفنيات المهمة للألفاظ في فن التوقيعات ، وذلك راجع ـ من وجهة نظري ـ إلى : طبيعة الموضوع الذي تحمله هذه التوقيعات، فهي في الأصل تشير إلى أحكام ناجزة، وتوجيهات صارمة، تصدر من الخلفاء، وكبار الولاة والكتاب ، إلى من هم دونهم في المرتبة ، وضروري أن تكون هذه التوقيعات غاية في الوضوح واليسر ؛ حتى يكون مغزاها مفهوما بشكل جلي ، لا يخالطه غموض ولا خفاء ، وبذلك يضمنون سرعة فهمها ، وبالتالي سرعة الاستجابة لمضمونها .

أضف إلى ذلك : ما كان يتمتع بـه خلفـاء الدولـة العباسـية و وزراؤهـم وكبار كتـابهم مـن فصـاحة وبلاغـة ، وسـليقة عربيـة أصـيلة ، جعلـتهم يـؤثرون اسـتعمال الألفـاظ السـهلة المألوفـة ، التـي تتـوفر فيهـا شروط الفصاحة والبلاغة ، فتصل بذلك إلى القلوب في أحسن صورة ، وأبهـي كساء .

وفيما ذكرته من التوقيعات في ثنايا البحث غنية عن إيراد شواهد أخـرى في هذا المقام .

ثانيا : **فنية العبارات** :

الحديث عن العبارة يتصل اتصالا وثيقا بالحديث عند اللفـظ ، وهـو مـا تكلمنا عنه من قبل ، ذلك لأن العبارة هي مجموعة من الألفاظ المنظمـة والمنسقة على نحو خاص ؛ لتؤدي معنى معينا يقصده الكاتب " فالكلمة الواحدة لا يمكن أن توحي إلا بخواطر مبعثرة ، لا تربطها صلة نفسية أو ذهنية واحدة ، وإنما تستمد الكلمة حياتها من وجودها في سياق خاص ، واتصالها بكلمات أخرى تتفاعل معها ، وتتأثر بها ، وتؤثر فيها " (٣٢)

وحين نترك هـذا التنظـير، وننتقـل إلى واقـع العبـارة في العصر العبـاسي الأول، سوف نلحظ أنها جاءت متنوعة الأشكال والألوان، فهي ما بين جمل خبرية، وأخرى إنشائية .

ولا شك في أن التلوين والتنوع في الأسلوب مفيـد في تنبيـه السـامعين ، وتنشيط عقولهم ، كما أنه دليل على براعة الكاتب، وإفادته من الأساليب المختلفة في اللغة العربية .

وسنتناول ـ الآن ـ طرفا من الأساليب في فن التوقيعات ، لنبين ـ من خلالها ـ سمات الأصالة الفنية القائمة على إحكام الصياغة ، وجمال المعنى.

١ـ التعبير الخبري :

حين نقلب الطرف في توقيعات العصر العباسي الأول، نجد كثرة هائلة في العبارات الخبرية، و لاسيما حين يكون التوقيع موجها إلى أمر وقع في الماضي، أو يحدث في الحاضر .

ومما يذكر من التوقيعات في هذا المقام :

* ما وقع به أبو العباس السفاح في رقعة جاءته من أبي مسلم الخراساني يستأذنه في الحج وفي زيارته :

لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته ، وإذنك لك (٣٣) .

فالتوقيع ـ هنا ـ مؤلف من عبارة خبرية طويلة ، وهي وإن كانت منفية اللفظ ، إلا أن مضمونها الإثبات ، إذ إن نفي حيلولة الزيارة، يقتضي إثباتها وإقرارها والموافقة عليها .

والتوقيع يجسد الأدب الجم لخلفاء بني العباس ، وتوقيرهم لرجال دولتهم ، وإحاطتهم بالرعاية والحفظ .

ومنه ما وقع به المنصور في رقعة رجل سأله أن يبني مسجدا بمحلته :

إن الصلاة على بعد ذلك أعظم لثوابك (٣٤) .

فالتوقيع ـ هنا ـ عبارة خبرية مكونة من ‹ إنَّ › الناسخة ، واسمها ، وخبرها .

وقد جاء التوقيع جوابا غير مباشر لسؤال أحد الرعية، حيث لم يجبه على طلبه بداية، ولم يرفض صراحة، وإنما نحا معه منحى التعليم، حيث نصحه وأرشده إلى أن الصلاة في المسجد البعيد أعظم للثواب ، مؤكدا كلامه بـ ‹إن› حيث لمح فيه لونا من التردد أو الشك في مضمون الخبر، والغرض من الخبر هنا: النصح والإرشاد .

* ومنه ما وقع به المهدي صاحب خراسان في أمر جاءه قبل أن يعلم به: أنا ساهر وأنت نائم ‹٣٥›.

فالتوقيع ـ هنا ـ مكون من جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، وهي ‹أنا ساهر › وهي تفيد الثبوت والدوام، وكأن السهر على الرعية شغله الشاغل، ثم تأتي الجملة الاسمية الثانية لتعكس المعنى المقصود من الكلام ، فليس الكلام بريئا أو على عواهنه كما يظن، ولكنه يحمل وراءه مضمونا خفيا تشف عنه الكلمات، إنه مضمون يموج بالغضب والثورة؛ بسبب الإهمال والتقصير الذي وصم به والي خراسان، فالتوقيع الخبري ـ هنا ـ يحمل معاني التهديد والتحذير كما هو ظاهر .

ومنه ما وقع به الرشيد في قصة نكبة البرامكة : أنبتتهم الطاعة، وحصدتهم المعصية ‹٣٦› .

التعبير ـ هنا ـ خبري كما هو ظاهر، وهو تعبير مكون من جملتين فعليتين، ماضيتين، مثبتتين ، تصوران أثر الطاعة والمعصية في حياة الإنسان .

والغرض من الأسلوب الخبري هنا : التحسر والحزن على ما آل إليه حال البرامكة، وقد يحمل تهديدا وتخويفا لكل من أراد أن يسلك مسلكهم، أو يقتفي أثرهم .

* ومنه ما وقع به المأمون في رقعة عمرو بن مسعدة (٣٧)، وقد رفع إليه أنه ترك بعد موته ثمانين ألف ألف درهم، فوقع في ظهرها :هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلّف، وأحسن لهم النظر فيما ترك (٣٨) .

في هذا التوقيع يتعانق التعبير الخبري والإنشائي، والخبري ظاهر في قوله : هذا قليل لمن اتصل بنا ،وطالت خدمته لنا ، والغرض منه : الفخر والاعجاب ، أما قوله: فبارك الله لولده فيما ترك ...فهو تعبير خبري لفظاً يحمل مضموناً انشائياً يفيد الدعاء .

والتوقيع على الجملة يعكس الأدب الجم، والعفة التي تحلى بها الخلفاء العباسيون .

ومنه ما وقع به الفضل بن سهل إلى هرثمة (٣٩) وقد أشار عليه برأي : لا يحل ما عقدت (٤٠)

هذا التوقيع عبارة عن جملة خبرية فعلية، وقد تصدرها حرف النفي "لا" إسراعا إلى تسجيل المدح والإعجاب بهرثمة ، الذي ظهرت حنكته ، وشاعت حكمته ونبالته في زمن العباسيين .

هذا ، وتوجد شواهد عديدة للتعبير الخبري في توقيعات العصر العباسي الأول غير ماذكرته (٤١)

٢ـ التعبير الإنشائي :

كما كان للتعبير الخبري أثره ودلالته الشعورية ، ومقاصده وأهدافه في فن التوقيعات ، كان للتعبير الإنشائي أيضاَ دلالته وإيحاؤه ، وأثره البين ، فقد عبر به الموقعون عن مكنون صدورهم ، وخلجات نفوسهم ، وما يتطلعون إليه من الأماني والطموحات الغالية .

وسوف نورد – هنا – من الشواهد المختارة لفن التوقيعات، ما نرجو أن بكون كافياَ لبيان كيفية توظيف الأسلوب الإنشائي فيها توظيفاَ يخدم ما كانوا يهدفون إليه من المرامي والغايات .

ومن ذلك ما وقع به المنصور إلى صاحب مصر ـ حين كتب إليه يذكر نقصان النيل :

طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد (٤٢).

في هذا التوقيع، نجد التعبير الإنشائي واضحاَ في قول المنصور : طهر عسكرك ... ، وهو أسلوب إنشائي طلبي ، ووسيلته الأمر ، وقد خرج من معناه الحقيقي إلى معنى آخر مجازى ، وهو النصح والإرشاد .

وقد تستشرف آذاننا في ثنايا هذا الأمر نغمة التهديد والتخويف، أي: ما نقصت مياه النيل إلا بجرم سبقتم إليه، أو تقصير تغاضيتم عنه ، فأفيضوا بالتوبة إلى ربكم ، تفض عليكم مياه النيل ليل نهار .

وبناء التوقيع على طريقة الشرط والجواب: يغرى بالإسراع إلى الاستجابة؛ طمعاً في نيل العاقبة المأمولة .

ومنه ما قع به المهدى إلى رجل من بطانته استوصل: ليت إسراعنا إليك، يقوم بإبطائنا عنك (٤٣) .

فالمهدي في توقيعه يوظف الأسلوب الإنشائي توظيفاً حسناً ، والغرض منه التمني ، وأداته "ليت" وهو يوحى بشئ من التندم والتحسر على تقصير طالت آثاره بعض بطانته المقربين، كما أن فيه تطييبًا للخاطر، واعتذرًا مغلفا بالتحفظ والكبرياء، الذي هو سمة الخلفاء والأمراء ممن لا يريقون ماء وجوههم .

ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب المدينة :

ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنهم قد أطالوا ليلى بالسهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد (٤٤).

يبدأ توقيع الرشيد – هنا – بالأمر الغليظ البادي في قوله " ضع " وهو أمر خرج من معناه الحقيقي إلى معنى مجازى ، وهو : الإهانة والتشديد . وتتعاون المفردات اللغوية في صدر هذا التوقيع مترجمة عن مقدار هذه الإهانة والشدة : فهي تبدأ بالأمر الصادر من الأعلى للأدنى ، وهو ما

يستوجب سرعة النفاذ ، وأخذ الحيطة من القوم ، ثم يأتي التعبير بقوله " رجليك " بالتثنية دون الإفراد ؛ كناية عن التشديد وإحكام القبضة عليهم ، ثم يأتي التعبير يقوله "على رقاب " والرقبة أشرف شيء في الإنسان ، وعليها تتوقف حياته ، وإذا ما ديست بالأرجل ، وأحكم عليها الخناق ، كان ذلك غاية السيطرة المشوبة بآلام الإهانة والامتهان ، وجمع " الرقاب " يوحى بامتداد أثر هذه الشدة على كل رقبة من رقاب القوم ، كناية عن الاستقصاء التام ، والتشديد الممعن في التحري .

ثم يأتي التعبير بقوله " أهل هذا البطن " وهم أحفاد على بن أبى طالب من العلويين ، مشيراً إليهم باسم الإشارة "هذا " تلويحاَ لا تصريحاَ ؛ تحرجاَ من الهجوم الصريح على أبناء عمومته ، وإن كانوا يمثلون في المدينة شوكة تؤرق الخلافة العباسية، وتطيل ليل خلفائها بالسهاد ، وتنفي عن عيونهم لذيذ الرقاد .

ونلحظ: أن التوقيع هنا يتصف بالعنف والشدة ، وهو ما يتناسب مع طبيعة المرحلة ، والظروف السياسية التي كانت تمر بها الدولة آنذاك .

ومنه ما وقع به المأمون في رقعة متظلم من حميد الطوسي (٤٥):

يا أبا غنم ، لا تغتر بموضعك من إمامك ، فإنك وأخس عبيده في الحق سواء (٤٦).

يبدو الأسلوب الإنشائي الطلبي واضحاَ في توقيع المأمون هنا، فهو يستهل توقيعه بالنداء بهذا اللقب المحبب "يا أبا غنم " وفيه تدليل

ومؤانسة للطوسي ، ثم يتغير أسلوب الخطاب إلى المفاجئة بهذا النهي الحقيقي الشديد الصارم " لا تغتر بموضعك من إمامك " وكأنه يجنح إلى قاعدة جده معاوية : الشدة في غير عنف .

والتوقيع يعكس حرص الخلفاء العباسيين على إقامة مبادئ العدل بين الرعية ، وتقليم أظافر الشر ، والإطاحة بكل هامة تعمل على إشاعة الظلم ، وإرواء نبتة التمييز والمحاباة بين الناس .

ومنه ما وقع به يحيى البرمكي في رقعة لابنه الفضل: ما أهون التدبير بالوصف (٤٧).

وهو أسلوب إنشائي غير طلبي ، ووسيلته : التعجب ، والتوقيع يشير إلى أن تدبير الأمور وقضاءها بالوصف أمر هين يستطيعه الغلمان، وصغار الناس ، أما الفعال فلا يدركها غير الرجال، وكأن يحيى البرمكي يستقى توقيعه من حكمة الإمام على كرم الله وجهه : رأى الشيخ خير من مشاهدة الغلام .

ومنه ما وقع به الفضل بن يحيى البرمكي لبعضهم : بئس الزاد إلى المعاد : التعدي على العباد (٤٨).

فقد وظف الفضل في توقيعه الأسلوب الإنشائي توظيفاَ جيداَ ، وهو إنشاء غير طلبي ، ووسيلته : الذم عن طريق استعمال " بئس " التي أفادت التنفير من التعدي على العباد ، وجعلته غاية في القبح والشناعة.

ويمكـن الرجـوع إلى مزيـد مـن الشـواهد التـي اعتمـدت الأسـلوب الإنشائي، وهي كثيرة وفيرة (٤٩).

٣ـ التصوير البياني :

حـين نقلـب الطـرف في توقيعـات العصر ـ العبـاسي الأول ، نجـد أنهـا اعتمدت كثيرا على التصوير البياني ؛ باعتباره وسيلة من وسائل الإيضاح ، فقد تفنن الخلفاء العباسيون ، وكبار الكتاب ورجال الدولة في التعبير عن المعاني بأكثر من طريق ، بهدف الإيضاح والتجلية ، وكشف الخفاء .

ويتضح ـ من خلال البحث ـ أن فن التوقيعات يجنح إلى بعض مباحث علم البيـان، أكثـر مـن بعضـها الآخـر، فمـثلا يقـل في التوقيعـات إيـراد التشـبيهات بصـورها العديـدة ، بيـنما يكثـر فيهـا اللجـوء إلى التعبـيرات الاستعارية ، والكنائية .

(أ) التصوير عن طريق التشبيه :

ذكرت آنفا أن اللجوء إلى التصـوير التشـبيهي قليـل في فـن التوقيعـات، ولعل السر في ذلك يرجع إلى: أن المقام لا يستدعيه إلا في حدود ضيقة، لإحساس الموقع أن طريق التشبيه لا يحقق له القناعة في التأثير، وإصـابة الهدف بما يرضي نفسيته .

* ومن التشبيهات القليلة التي وردت في هذا الشأن :

ما وقع به المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله (٥٠) :

لو كان عيسى عاملكم، قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش .

فالمهدى ـ هنا ـ يرتجف فؤاده؛ لمظنة وقوع ظلم من بعض عماله، فتخط يراعته هذا التوقيع الشديد اللهجة الذي يصور ملامح غضبته من بادرة ظلم محتملة ..

وقد قام التصوير التشبيهي بذلك خير قيام، حيث شبه هيئة إحكام قبضته على عيسى ولده في الإلزام والتحكم و الانقياد لأمره، بهيئة الجمل الذي يتحكم فيه صاحبه، بجامع مطلق الانقياد في كل ، وهو تشبيه مركب كما هو ظاهر .

وتأتي قيمة التشبيه ـ هنا ـ في رسم هذه الصورة الطريفة ـ المستمدة من البيئة العربية ـ للحاكم المؤمن الذي يفزع من بوادر الظلم، فيسارع بإعادة الأمور إلى نصابها .

ومنه ما وقع به جعفر بن يحي البرمكي في رقعة رجل شكا عُزبة : الصوم لك وجاء (٥١) .

فتوقيع جعفر البرمكي ـ هنا ـ جاء على صورة التشبيه، وهو تشبيه بليغ ، حيث حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه، والصوم فيه مشبه بالوجاء، والوجاء من الوجي، وهو في الأصل دق خصيتي الفحل ؛ إيقافا له ، وإبطالا لشهوته (٥٢) .

والمعنى : أن الصوم يكون لصاحبه كالوجاء الذي يبطل الشهوة.

وهو توقيع يمتاز بالإيجاز والتكثيف، فهو مكون من كلمتين: الصوم، ووجاء ... ولكنه يحمل كثيرا من المعاني التي يطول مقام تفصيلها .

(ب) التصوير عن طريق الاستعارة :

يكثر الاعتماد على الاستعارة في فن التوقيعات إذا ما قورنت بالتشبيه ، والاستعارة لها أثرها الظاهر في أسلوب التوقيع ، فهي تضفي عليه من الفتنة والجمال والروعة ما يكسبه قوة وجلاء ووضوحا ، وهي تساعد على إبراز الفكرة في صورة تستجمع كل معالم الفن والإبداع ، كما لا يخفي ما فيها من فن وجمال وسحر ، وصور جميلة رائعة تؤدي إلى إيضاح المعاني ، وتجلية الأغراض والمقاصد .

* ومن التوقيعات التي اتكأت على التصوير الاستعاري :

* ما وقع به المهدي لمن سأله مالا : أتاك الغوث (٥٣) . بالنظر ، نجد هذا التوقيع يعتمد على التصوير الاستعاري ، ففي لفظ (الغوث) استعاره تصريحية أصلية ، حيث شبه المال أو العطاء الذي سيمنحه لهذا السائل بالغوث، ثم استعار لفظ المشبه به للمشبه ، وفي ذلك من التخييل والإيهام ما يبرز المعنى المقصود في صورة واضحة، وهو تصوير (عطاء المهدي) للسائل بصورة (الغوث) فكما أن الأرض تحيا بالغوث، فإن السائل سيحيا به ، وتطيب به نفسه ، وفي ذلك من الجمال والروعة ما فيه .

* ومنه ما وقع به الرشيد إلى عامله على مصر : احذر أن تخرب خزانتي ، وخزانة أخي يوسف، فيأتيك منه ما لا قبل لك به، ومن الله أكثر (٥٤) .

فالرشيد ـ في توقيعه ـ يجنح أيضا إلى توظيف الأسلوب الاستعاري توظيفا حسنا ، فهو يستعير لفظ ' الخزانة ' لأرض مصر ، بجامع كثرة الخيرات ووفرتها في كل ...

والأسلوب ـ هنا ـ يخيل إلى السامع أن مصر ليست أرضا ودورا وبشرا، ولكنها خزانة تكتظ بالخيرات الوفيرة والنعم العميمة، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى إيضاح المعنى، وتجلية الغرض المقصود من الكلام .

* ومنه ما وقع به المنصور إلى صاحب مصر حين كتب إليه يذكر نقصان النيل (٥٥) : طهر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد .

فالأسلوب قائم على الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل ' طهر ' حيث شبه القضاء على فساد عسكره بالتطهير الحسي ، ثم استعار التطهير للقضاء على الفساد ، ثم اشتق من التطهير (طهر) بمعنى اقض على .

وفي الاستعارة ـ هنا ـ تخييل وإيهام جميل يبعد بالمعنى عن حقيقته، حتى إنه يجعل السامع يتخيل أن العسكر ثوب ملوث يجب تطهيره مما ألم به، ثم يتضح له المعنى المراد بعد ذلك ، فيستقر في نفسه أيما استقرار .

ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب خراسان (٥٦) : داو جرحك لا يتسع

في توقيع الرشيد ـ هنا ـ تبدو الاستعارة التمثيلية واضحة المعالم ، حيث شبه هيئة إحكام أمر المملكة والقضاء على ما بدا فيها من الفتن وأسباب النزاع والفرقة، بهيئة الجرح الذي ما زال في بدئه ، ويحرص صاحبه على

التئامه قبل أن يستفحل ضرره، ويستعصي أمره، ثم استعار هيئة المشبه به للمشبه ـ وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية .

والتوقيع يبدو ــ هنا ــ في شكل حكمة رائعة ، وهو مجال تكثر فيه الاستعارات التمثيلية .

* ومنه ما وقع به الرشيد في قصة البرامكة (٥٧) : أنبتتهم الطاعة ، وحصدتهم المعصية

وفي هذا التوقيع : نلحظ روعة توظيف الأسلوب الاستعاري ، حيث تبدو فيه استعارتان تصريحيتان تبعيتان في " انبتتهم، وحصدتهم " حيث استعار (الإنبات) لتثبيت وجودهم وبقاء ملكهم ، ثم اشتق من الإنبات " أنبتتهم " بمعنى أبقتهم وثبتتهم .

ثم استعار (الحصاد) للقضاء عليهم، ثم اشتق منه " حصدتهم " بمعنى : قضت عليهم .

وفي ذلك من التخييل والتأثير ما يؤدي إلى تثبيت المعنى ، وإقراره في نفس صاحبه .

وفي توقيعات العصر العباسي الأول نماذج كثيرة للتصوير الاستعاري يرجع إليها (٥٨) .

(جـ) التصوير عن طريق الكناية :

الأسلوب الكنائي واحد من أساليب البيان المهمة ، التي لها دلالتها الواضحة في تجلية المعاني ، وإيضاح الأفكار ، بما تضفيه علي الكلام من سحر وجمال وروعة ، فهي تبرز المعقول في صورة المحسوس ، فتزيده

إيضاحا وبيانا ، وتثبته في نفس المخاطب ، كما أنها تشير إلى المعنى بلطف وبراعة ، بحيث تصل إلى هدف المتكلم من كلامه دون أن تؤذي أحدا أو تواجهه بما يكره، لذا كانت الكناية متكأ قويا اتكأ عليه الموقعون في العصر العباسي الأول .

* و مما ورد في ذلك : ما وقع به المنصور إلى عبد الحميد صاحب خراسان :

شكوت فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت عن الجماعة ، فتأهب لفراق السلامة (٥٩)

فالمنصور هنا يوظف الكناية توظيفا فنيا مقبولا ، حيث إن كلمة (فراق السلامة) لفظ له معنيان ، أحدهما : قريب غير مقصود ،وهو الإصابة بالمرض .

والآخر : بعيد مقصود ، وهو القتل أو ذهاب الراحة والاستقرار .

وقد أدت الكناية هنا دورا مهما في تجلية المعنى ، وإيضاح الفكرة ، وتثبيتها في نفس المتلقي .

* ومنه ما وقع به المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه (٦٠) : أنا ساهر، وأنت نائم

ففي كلمتي (ساهر ، ونائم) كنايتان حيث إن كلمة (ساهر) لفظ له معينان ؛ أحدهما :

قريب غير مقصود ، وهو عدم النوم ليلا، والآخر بعيد مقصود، وهو اليقظة والانتباه لما يقع في أطراف الدولة .

وكذا كلمة ' نائم ' لها معنيان ، أحدهما : قريب غير مقصود ، وهو النوم الحقيقي ، والآخر : بعيد مقصود ، وهو : الغفلة والتفريط .

وقد ساعد الأسلوب الكنائي هنا على إبراز المعنى في صورة لطيفة بارعة دون أن تواجه الشخص المخاطب به بشيء يكرهه .

❁ **ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب المدينة** (٦١) : ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن .

فالرشيد ـ هنا ـ يعبر عن معنى من المعاني بطريق الكناية ، حيث إن لفظ ' الرقاب ' له معنيان ، أحدهما : قريب غير مقصود ، وهو الأعناق الحقيقية المعروفة ، والآخر : بعيد مقصود ، وهو : الشدة وإحكام السيطرة عليهم .

وقد جسدت الكناية ـ هنا ـ الشيء المعقول ، وعرضته في صورة الشيء المحسوس ، مما أدى إلى توكيده وإبرازه وتثبيته في الذهن .

* ومنه ما وقع به المأمون إلى الرستمي وقد تظلم منه غريم له :

ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة ، وجارك طاو ، وغريمك عاو (٦٢) .

ففي لفظي ‹الذهب والفضة› دلالة عن طريق الكناية ، حيث إن لهما معنيين ، أحدهما : قريب غير مقصود وهو الذهب والفضة حقيقية ، والآخر : بعيد مقصود وهو الترف والرفاهية .

والمعنى : ليس من المروءة لمن كان قادرا على أداء الحق لصاحبه ، وهو يعيش في هذا الترف ، أن يماطل في رد الحقوق لأصحابها .

* ومنه ما وقع به المأمون إلى الواقدي ، وقد كتب إليه يستمنح :

قد أمرت لك بضعف ما كتبت ، فزد في بسط يديك ، فإن خزائن الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوطة(٦٣) .

فكلمة ‹بسط اليد› لفظ له معنيان ، أحدهما : قريب غير مقصود ، وهو : فتح اليد ومدها ، والآخر: بعيد مقصود ، وهو الإنفاق والجود .

وقد صور التوقيع صاحب الجود والكرم بهذه الصورة المحسوسة والجميلة ـ وهي صورة إنسان يفتح يده ويمدها بشدة ـ تصويرا رائعا عن طريق توظيف أسلوب الكناية ؛ لما له من قوة وتأثير وفاعلية .

ومنه ما وقع به الفضل بن سهل إلى هرثمة وقد أشار إليه برأي : لا يحل ما عقدت (٦٤) . *

فهذا التوقيع ـ على إيجازه ـ يحمل كناية جميلة ، لها معنيان ، أحدهما :قريب غير مقصود ، وهو : أن الحبل الذي عقده هذا الرجل لا يستطيع أحد نقضه ؛ لشدة إبرامه ، والآخر : بعيد مقصود ، وهو : أنه ذو رأي صائب محكم .

وقد صورت الكناية هذا المعنى المعقول في صورة محسوسة ، وذلك أدعى إلى إيضاحه وإبرازه ، وتثبيته في وجدان السامع أو القارئ .

وندرك ـ من خلال ما تقدم ـ أن الموقعين في العصر العباسي الأول ، قد اتجهوا إلى مباحث علم البيان، ينسجون عليها توقيعاتهم ، وينهلون من معينها الثرّ ، ويوظفونها توظيفا جيدا ؛ لتفي بمرادهم ، وتحقق الغاية من كلامهم .

□ : **ـ الاستقاء من التراث4**

من الظواهر الأسلوبية البارزة في توقيعات العصر العباسي الأول : الاستقاء من عبارات ومواقف التراث العربي الأصيل .

وقد تنوعت جوانب الإفادة من هذا التراث، وهو أمر يشي بتقدير أعلام الموقعين في هذا العصر لتراثهم، وهو ما يجسد مكانته السامقة في نفوسهم .

ومن الشواهد التي تذكر في هذا المقام :ما وقع به أبو العباس السفاح إلى عامل تظلم منه : " وما كنت متخذ المضلين عضدا " (٦٥)

فالتوقيع هنا استقى مضمونه من جزء من آية من القرآن الكريم ، وهو ما يسمى بالاقتباس ، وقد اكسب هذا الاقتباس المعنى جمالا، وأضفي عليه قوة وجلالا ، هذا فضلا عما في التوقيع من تهديد شديد بعزل هذا الوالي الذي بدت منه بوادر الظلم والجور .

* ومنه ما وقع به المنصور إلى أهل الكوفة وقد شكوا عاملهم :" كما تكونون يؤمر عليكم "(٦٦): فالمنصور يبدو وقد صال وجال في أودية السنة النبوية ، حتى استقى منها هذا التوقيع الموجز " كما تكونون يولى عليكم " (٦٧) . ﷺ المستمد من قول الرسول

والتوقيع ـ هنا ـ يوحي بأن أهل الكوفة أهل شغب وتمرد ، لذا فقد منوا بالولاة المتعسفين ؛ جزاء وفاقا .

* ومنه ما وقع به المأمون في قصة متظلم من أبي عيسى أخيه (٦٨) :

" فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون " (٦٩)

بالنظر، نجد أن توقيع المأمون ـ هنا ـ آية من كتاب الله تعالى، وقد أحسن الاقتباس، والمأمون تجمعه بعيسى أخيه علاقة نسب ودم ، ولكن حين تلوث يدي عيسى بالظلم والجور ، والعبث بالآخرين ، فإن الخطب يكون جليلا ، والأمر لا يطاق ، وهذا ما جعل المأمون يغضب عليه غضبه الأسد، ويشتد في محاسبته، واضعا النسب والأخوة جانبا؛ إذ لا محاباة ولا أخوة في الظلم .

* ومنه ما وقع به جعفر بن يحي البرمكي في قصة محبوس التمس الإطلاق (٧٠) : " لكل أجل كتاب " (٧١) فهذا محبوس لم يقض مدة حبسه ، ويلتمس إطلاق سراحه ؛ طمعا في كرم أولي الأمر ، فيوقع إليه جعفر البرمكي بجزء من آية كريمة " لكل أجل كتاب " وهو توقيع

يحمل الرد الكافي الشافي لسؤال السائل ، وقد جاء في صورة اقتباس قرآني رائع ، أكسب المعنى جمالا ، وأضفي عليه قوة وجلالا .

* ومنه ما وقع به ـ أيضا ـ في قصة رجل شكا عزبة : الصوم لك وجاء [٧٢] .

فالتوقيع ـ هنا ـ مستقى من قول الرسول ﷺ : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ؛ فإنه له وجاء " وقد استطاع التوقيع ـ هنا ـ تصوير المعنى المعقول ـ وهو التحصن والعفة ـ بشيء محسوس ، وهو الفعل الذي يترتب عليه إبطال شهوة الفحل بإفساد خصيتيه ، وفي ذلك إيضاح وتثبيت للمعنى .

وبهذا الشكل الفني صال الموقعون وجالوا في طوايا التراث العربي ، ممعنين النظر فيه ، والأخذ منه بما يتناسب مع المقامات والأحوال الطارئة على أمور ملكهم ، وهو ما يجسد القيمة العظيمة لهذه المشارب التي أخذوا منها ، واتكأوا عليها [٧٣]

٥ـ شيوع الحكمة :

الحكمة ملمح مهم ، وسمة أسلوبية بارزة في توقيعات العصر العباسي الأول ، وهي في شكلها العام تدل على اكتمال النضج العقلي ، وعلى خصوبة الفكر ، وضربه في كل مجالات الحياة بسبب ، كما أن ذلك يدل على الخبرة الواسعة التي صقلتها تجارب الحياة ، وغذتها المعايشة على أرض الواقع .

والحكمة لها أثرها البالغ في التأثير على الوجدان ، وفي توجيه الحياة والفكر ...

وقد وقعت الحكمة كثيرا في توقيعات خلفاء بني العباس ورجال دولتهم ، ومن ذلك :

* ما وقع به الرشيد إلى صاحب خراسان ، وقد ظهرت عنده بوادر فتنة [٧٤] :

" داو جرحك لا يتسع "

فالرشيد ـ هنا ـ تجري على لسانه مسارب الحكمة والحنكة ، فهو يترجم بهذه الكليات عن الاكتمال العقلي ، والخصوبة الفكرية ، والخبرة الواسعة ، لاسيما في مجال معالجة الفتن والأمراض التي قد يندلع لظاها هنا أو هناك .

* ومنه ما وقع به المأمون في قصة متظلم من أبي عباد [٧٥] : ليس بين الحق والباطل قرابة [٧٦]

والتوقيع ـ هنا ـ قول يبلغ في الحكمة ودقة الرأي مبلغا ، إذ إن الحق والباطل على طرفي نقيض ، والشقة بعيدة بينهما ، وهو الذي عبر عنها المأمون بالقرابة ، فلا قرابة بين حق وباطل .

والتوقيع دعوة صريحة إلى وجوب الحسم والبيان حين نعالج أمور الحياة، وبذلك تحفظ القيم، ولا تختلط الأوراق .

ومنه ما وقع به المأمون أيضا في اعتذار قدمه إليه إبراهيم بن المهدي (٧٧) :الندم جزء من التوبة (٧٨)

حين ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي في بغداد سنة ٢١٠هـ ، سجنه مدة ؛ لفحش هجائه فيه ، ولما قدّم إليه إبراهيم اعتذارا مكتوبا ،قبله المأمون، ثم وقع عليه بهذا التوقيع ، وهو توقيع يجسد حلم المأمون، وعدم ميل فطرته إلى الانتقام والتشفي، والحكمة في جملتها مستقاة من البيان النبوي في قول الرسول (ﷺ): " الندم توبة " (٧٩)

وإن بقي بيان النبي (ﷺ) أروع وأجمل، وأوسع بابا، فالندم في كلام المصطفي توبه كاملة، وفي توقيع المأمون هو جزء من التوبة .

* ومنه ما وقع به جعفر بن يحي البرمكي لمتنصح (٨٠) :بعض الصدق قبيح .

والحكمة التي جاد بها عقل البرمكي ــ هنا ــ جيدة ، وتناسب بعض المقامات التي يكون الصدق فيها غير جميل، كأن يكثر شخص من مدح شخص آخر أمام الناس بما هو فيه، كأن يعلن عن إحسانه، وأعمال البر التي يبتغي بها وجه الله تعالى .

* ومنه ما وقع به الفضل بن سهل إلى صاحب الشرطة (٨١) : ترفق ، توفق .

التوقيع الموجز البليغ، الذي يحمل بين دفتيه صادق الكلم، ينتشر ويسرى بين الناس، ويصبح حكمة تصفق لها القلوب، وإن بدت الاستفادة

مأخوذة من قول الرسول ﷺ : " إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه " (٨٢)

السمات العامة لأسلوب التوقيعات في العصر العباسي الأول :

حين نتأمل التوقيعات في العصر العباسي الأول ، نجد أنها اتسمت بعدة سمات مهمة، ويمكن أن نجمل هذه السمات فيما يأتي :

١ــ شيوع صيغ الأمر الحادة العنيفة :

أسلوب الأمر القاطع أحد الوسائل المهمة التي اعتمد عليها الموقعون في العصر العباسي الأول ؛ وفي ذلك تصوير لقوة الدولة وهيمنتها ، وإظهار هيبتها وبسالتها ، فضلا عن تصوير الاستعلاء على المأمور وقهره ، وإرغامه على تنفيذ ما أمر به .

ولقد اعتمد الأدباء قديما على هذا الأسلوب في إسكات خصومهم وإفحامهم ، مثل قولهم : " دع المكارم " للحطيئة (٨٣) وقولهم : " فغض الطرف " لجرير (٨٤) .

* ومن ذلك ما وقع به المنصور إلى عامله على حمص وقد جاءه منه كتاب فيه خطأ (٨٥) :

استبدل بكتابك ، وإلا استبدل بك .

* ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب خراسان: داو جرحك لا يتسع(٨٦) .

* ومنه ما وقع به أيضا إلى عامله على خراسان: كل من رفع رأسه ، فأزله عن بدنه ‹٨٧› .

* ومنه ما وقع به أيضا إلى عامله على مصر: احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف ‹٨٨›

فصيغ الأمر الحادة العنيفة تبدو بارقة في كل توقيع مما سبق ...

ففي توقيع المنصور ، نجد فعل الأمر " استبدل " إنه الأمر العنيف الذي لا مفر من تنفيذه تحت موجات التهديد الهادرة التي يحملها التوقيع . وفي التوقيع يبدو حرص المنصور على وجوب اختيار الكتاب بدقة كاملة ، إذ لا يليق – إطلاقا- أن ترد بعض المكاتبات إلى ديوان الخلافة حاملة بين طياتها معرة الأغاليط والهفوات .

وليست التوقيعات الثلاثة التالية للتوقيع السابق بأقل حدة وعنفا منه ، فها هو ذا الرشيد يكثر من صيغ الأمر الحادة ، مثل ‹داو ، احذر ، فأزله › وإن بدت الرقة في الفعل ‹داو› فقد كان ذلك في بداية التخوف من ظهور الفتنة والاضطراب ، لكن الفتنة حين وقعت بالفعل ، كان التعبير بالفعل ‹أزله› والضمير في الكلمة عائد إلى الرأس ، ولا شك في أن الأمر بالإطاحة بكل رأس ترفع ، أمر فيه من الشدة والقهر ما فيه .

وكذلك الحال مع الأمر في كلمة ‹احذر› إنه أمر وتحذير لكل من تسول له نفسه العبث والفساد ، في مقدرات الشعوب ، وأرزاق الخلق ‹٨٩› .

٢ـ أسلوب المقارنة الحادة :

أسلوب المقارنة أحد الأساليب المهمة في فن التوقيعات ، وهو يقوم على " المقارنة بين حالتين ، أو ظاهرتين ، أو وصفين مثلا ، ويعتمد على المفارقة " (٩٠)

وهذا الأسلوب أكثر إيجاعا وإيلاما ؛ لأنه يجمع بين الشيء ونقيضه ، ولذا كثر استعماله في التوقيعات العباسية .

* ومن ذلك ما وقع به أبو العباس السفاح إلى ساع : تقربت إلينا بما باعدك عن الله ، ولا ثواب لمن خالف الله (٩١) .

فأبو العباس السفاح ـ في توقيعه ـ يعقد مقارنة بين حالتين : حالة رجل يسيء التصرف حين يتقرب إلى الحاكم بنقل أخبار الآخرين إليه ، وحالة حاكم غير فرح ولا مسرور بذلك ، بل يعالج الخطأ ، ويكشف له عن الجانب السيئ فيما صنع ، وهو أنه تقرب إليه بما باعده عن الله ، ورضا المخلوق لا يطلب بما فيه مغضبة الله تعالى ، والجمع بين الصورتين بهذا الشكل يكون أكثر إيلاما ؛ لأنه يظهر الفرق الشاسع بينهما .

* ومنه ما وقع به الرشيد في قصة البرامكة : أنبتتهم الطاعة ، وحصدتهم المعصية (٩٢) .

فالرشيد يرسم ـ من خلال القدرات البيانية التي امتاز بها أسلوبه ـ صورة لحالتين متناقضتين للبرامكة في ظلال الدولة العباسية ، الحالة الأولى : حالة البرامكة الطائعين المخلصين حين أوجدتهم الطاعة ،

وقوت من وضعهم السياسي والاجتماعي في الدولة، فنبه شأنهم ، وعلا نجمهم ، والحالة الثانية : حالة البرامكة الخائنين المدبرين لإسقاط الخلافة العباسية حين حصدتهم المعصية ، واستأصلت شأفتهم ، وأدارت عليهم الدوائر .

وهذه الصورة تجسد لونا من المقارنة الحادة بين حالتين ، والجزاء المناسب لكل منهما ، وفي ذلك إخافة وإرهاب لكل من تسول له نفسه العبث في شئون البلاد .

* ومنه ما وقع به المأمون في رقعة مولى طلب كسوة :

لو أردت الكسوة للزمت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد ، فحظك الرؤيا (٩٣) .

المأمون هنا يتخذ أسلوب المقارنة الحادة متكأ لتوقيعه ، فيرسم به حالتين متناقضتين : حالة مولى يعمل ويكدح ، فيكسى ويكرم ، وحالة مولى آخر يؤثر الراحة والكسل فيعرى ويهان ...

وهي مقارنة تظهر الفرق الشاسع بين الحالتين : حالة الإنسان العامل الذي يشرفه عمله ، وحالة الإنسان الخامل الذي تهينه بطالته ، والتوقيع دعوة صريحة إلى العمل والكفاح ، ونبذ الخمول والكسل

٣ـ أسلوب المبالغة والتزيد :

المبالغة أحد الأساليب المهمة هي الأخرى في فن التوقيعات ، والكاتب في العادة لا يبالغ ويتزيد في الوصف إلا إذا كان هناك من المخالفات ما يستوجب الثورة ضده ، وإيقاف امتداده .

وقد وردت توقيعات عديدة في العصر العباسي الأول تحمل هذه السمة ، ومنها :

* ما وقع به المهدي في رقعة متظلمين شكوا بعض عماله :

لو كان عيسى عاملكم قدناه إلى الحق ، كما يقاد الجمل المخشوش (٩٤)

فالمهدي في هذا التوقيع يبدو غاضبا ثائرا ، حين لاحت أمامه بوادر ظلم وقعت من بعض عماله في بعض النواحي ، وربما كان يكفيه أن يقول لعامله هذا بطريق مباشر : كف عن ظلم الناس وإلا عاقبناك ، ولكنه يأبى أن يرسل توقيعه هادئا مطمئنا ، فيؤدي إلى التمادي في الظلم وضياع الحقوق ، ومن هنا كان هذا التوقيع غير المباشر الذي يحمله المهدي كثيرا من ملامح الثورة والغضب ، ويرسله شواظا من نار يحرق عنق كل مخالف ، ثم يتزيد المهدي في المبالغة فيزعم أن عيسى ولده لو كان في موضع هذا العامل ، وحاد عن الحق قيد أنمله ، لأرجعه المهدي إلى حياض الحق مقهورا مرغما كالجمل المخشوش .

* ومنه ما وقع به الرشيد إلى صاحب المدينة :
ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن ؛ فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد ، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد (٩٥)
ربما كان يكفيه لو قال لعامله : أحكم السيطرة على هؤلاء ، ولكنه لا يريدها خاملة مجردة ، إنه يرسم له كيف يحكم السيطرة عليهم بطريقة فيها تصوير المعقول في صورة المحسوس ـ و يبالغ ويتزيد في هذا الأمر ، فيوظف بعض المفردات اللغوية توظيفا يخدم المعنى المراد ، فيذكر وضع الرجلين لا رجلا واحدة ، ويحدد مكان وضعها ، إنه على الرقاب ، لا على أي عضو آخر.....
وبذلك استطاع أسلوب التوقيع بما فيه من تزيد ومبالغة أن يصور مقدار الضغط والعنف الذي منى به العلويون في بعض الحقب التاريخية .
* ومنه ما وقع به الحسن بن سهل في قصة امرأة حبس زوجها (٩٦) : " الحق يحبسه ، والإنصاف يطلقه "
فالحسن بن سهل ـ هنا ـ يرسل بهذا التوقيع ، وكأنه مبدأ قانوني عام ، فالحبس إن كان عن جرم وقع ، فحقيق بمقترفه أن يحبس ، وإن لم يقع جرم ، فيجب أن ينصف المتهم ...
كأن الحق هو الذي حبسه حين أجرم ، وأن الإنصاف هو الذي أطلقه حين ظهرت براءته .

وقد ساعد التوقيع ـ هنا ـ عن طريق المبالغة والتزيد : تشخيص المعنى (الحق ، والإنصاف) وتحويله إلى محسوس في صورة إنسان ، وهو ما يعرف بلاغيا بالتشخيص وهذه مبالغة جميلة ، تؤدي إلى توضيح المعنى وإبرازه في صورة واضحة (٩٧) .

ثالثًا: موسيقى التوقيعات:

الموسيقى أمر ضروري في الشعر؛ إذ هي عماده ومداره، وخلوه منها داء عضال يفقده بريقه، ويذهب برونقه، أما في النثر، فإن وجدتْ فأمر جيد، وإن لم توجد فلا بأس، ولا يعد ذلك عيبًا ولا ضعفًا.

ويفهم من هذا: أن النثر لا يرجو الموسيقى، ولا يسعى لها حثيثًا، وإن كان ذلك حين يتوفر في بعض النصوص يُثريها ويُغنيها، ويخلع عليها أطيافًا من الجمال والروعة.

وموسيقى التوقيعات الأدبية في العصر العباسي الأول من القوه والثراء بمكان، ويمكن أن نوجز الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولاـ الموسيقى الخارجية (الظاهرة) وعناصرها :

يسعى النثر ـ في كثير من الأحيان ـ إلى توفير ضرب من التلاؤم الموسيقي الذي يكسو التعبير كسوة الازدواج، والترادف الصوتي، و يُلبسه أثوابا قشيبة من الصياغة والإبداع.

ويمكن أن نشير هنا إلى بعض عناصر الموسيقى الخارجية التي شاعت في توقيعات العصر العباسي الأول على النحو الآتي:

١ـ السجع :

السجع ـ كما عرفه البلاغيون ـ أن تتفق الكلمتان الواقعتان في نهاية الجملتين في الحرف الأخير منهما، وبذلك يتم التشابه والتماثل بينهما(٩٨). وهو زينه للنثر ؛ حيث "يضفي على الأسلوب نغمة زائدة في البناء الموسيقى، وهو محبب ما دام محققًا لهذه الغاية، مقتصدًا في ذلك (٩٩).

ـ ومن ذلك ما وقّع به المنصور إلى صاحب مصر حين كتب إليه يذكر نقصان النيل :

" طهّر عسكرك من الفساد ، يعطك النيل القياد " (١٠٠)

فقد أوقع المنصور السجع بين الفاصلتين: الفساد، والقياد، وهو سجع مطرّف؛ حيث اتفقت الفاصلتان في القافية، واختلفتا في الوزن .

ـ ومن هذا النوع أيضا ما وقّع به جعفر بن يحيى البرمكي في قصة محبوس:

" الجناية حبسته، والتوبة تطلقه" (١٠١). فالسجع بين الفاصلتين: حبسته وتطلقه، وهما فعلان، الأول ماض، والثاني مضارع، وقد اتفقتا في القافية، واختلفتا في الوزن .

ـ ومن السجع ما وقّع به الرشيد إلى صاحب المدينة:

" ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن، فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد" (١٠٢) فالسجع واقع بين الفاصلتين: السهاد، والرقاد، وهما اسمان، وهو سجع متوازٍ؛ حيث إن الكلمتين قد اتفقتا وزنا وتقفية.

ـ ومنه وقع بين الفضل بن سهل لحاجبه : " تمهل وتسهل " (١٠٣) فالسجع واقع بين الفاصلتين: تمهل، وتسهل، وهما فعلا أمر، والجناس متوازٍ كسابقه، حيث اتفقت الكلمتان وزنًا وتقفية .

وبذلك يظهر ما للسجع من تأثير السحر في النفوس، لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التي تطرب لها الآذان، و تهش لها النفوس، فتقبل على السماع من غير ملل أو فتور.

الجناس :

عرف البلاغيون الجناس بأنه: "التشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى" (١٠٤) وهو صبغ بديعي جذاب، له في الأسلوب ملاحته وجماله.

ومنه ما وقّع به المأمون إلى عامل شكاه أهل محلته : *

" إن آثرت العدل، حصلت على السلامة، فانصف رعيتك من هذه الظلامة" (١٠٥)، فالجناس واقع بين كلمتي: السلامة، والظلامة، وهما اسمان، وهو جناس غير تام؛ حيث اختلفت بعض الحروف في نوعها .

* ومنه ما وقع به المأمون أيضا إلى أهل بلد شكوا من إتيان الجراد على غلاتهم:

" نحن أولى بالجراد من ضيافة السواد ..." (١٠٦) فالجناس لامع بين كلمتي : الجراد، والسواد، وهما اسمان، وهو جناس غير تام أيضًا؛ لاختلافهما في نوع بعض الحروف.

* ومنه ما وقع به جعفر بن يحيى البرمكي في قصة عامل تظلم منه أهل محلته:

" يا هذا، قد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت" (١٠٧) فالجناس واقع بين كلمتي: شاكوك، وشاكروك ، الأولى : من الشكاية ، والثانية : من الشكر، وهو جناس غير تام؛ لما بينهما من اختلاف في نوع بعض الحروف.

ويوجد جناس آخر ــ في هذا التوقيع ــ وهو ما يظهر بين كلمتي: اعتدلت، واعتزلت وهما فعلان ماضيان، وهو جناس غير تام؛ لاختلافهما في نوع بعض الحروف.

* ومنه ما وقع به الفضل بن سهل لحاجبه: " تَرفّق، تُوفّق " (١٠٨) والجناس بادٍ بين كلمتي: ترفق، وتوفق، وهما فعلان، الأول أمر، والثاني مضارع مبني للمجهول، والجناس بينهما غير تام؛

لاختلافهما في بعض الحروف.

وقد جاء الجناس في هذه التوقيعات مقبولاً مطبوعًا كما رأينا، استدعاه المقام، واقتضاه المعنى، فكان له أثره الجليل في الأسلوب.

٣ــ المقابـــلـــــة:

المقابلة في عرف البلاغيين هي: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب" (١٠٩) وتكون بليغة إذا جاءت صحيحة ومطبوعة، بمعنى أن يكون ترتيب الكلام على ما ينبغي، بأن يقابل الموقع كل صورة بما يناسبها و يلائمها .

* ومن المقابلة : ما وقع به المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه قبل أن يعلمه:

" أنا ساهر، وأنت نائم" (١١٠) فقد وقعت المقابلة هنا بين معنيين ، فجملة : وأنت نائم ، تقابل : أنا ساهر .

* ومنه ما وقع به الرشيد في نكبه البرامكة: "أنبتتهم الطاعة، وحصدتهم المعصية" (١١١) فقد قابل بين الإنبات، والحصد، كما قابل قابل بين الطاعة، والمعصية.

* ومنه ما وقّع به جعفر البرمكي في قصة عامل تظلم منه أهل محلته:

" يا هذا، قد كثر شاكوك، وقلّ شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت " (١١٢) فقد قابل بين الكثرة والقلة، والشاكين والشاكرين، والاعتدال والاعتزال، وقد تعانقت المقابلة مع الجناس في هذا التوقيع مع توازن بين الإيجاز والإطناب، وبراعة التآلف بين جمال الإيهام والتخييل ، و جلال الحقيقة.

* ووقع جعفر البرمكي أيضا في قصة محبوس: "الجناية حبسته، والتوبة تطلقه" (١١٣) فقد قابل بين معنيين: الجناية والتوبة، والحبس الإطلاق.

هذا و فن التوقيعات غنى بهذه الأصباغ البديعية التي استدعتها المعاني، ودعت إليها المقامات.

ثانيا ـ الموسيقى الداخلية (الخفية) :

الموسيقى الداخلية: هي ذلك الانسجام الداخلي الذي ينبع من التوافق الموسيقى بين الألفاظ ودلالاتها حينًا، وبين الكلمات بعضها وبعض حينًا آخر.

ويذكر المرحوم الدكتور/ شوقي ضيف: أن الموسيقى الداخلية التي تنشأ من اختيار الأديب لكلماته لم تضبط بعد كما ضبطت الموسيقى الخارجية عن طريق قواعد علمي العروض والقافية، وأن خفاءها الذي لا يكاد يبين ـ وإن أمكن الإحساس به ـ قد باعد بينها وبين الحصر، والإشارة إليها بالبنان(١١٤).

وهذا معناه: أن باب الاجتهاد والرأي مازال مفتوحًا أمام النقاد وأصحاب البصيرة، لاستكشاف مزيد من القيم الجمالية الكامنة في النص الأدبي، كل حسب ذوقه وإحساسه، ودرجة ثقافته.

وحين نتأمل فن التوقيعات العباسية، نجد فيها نغمًا خفيًا نشعر بأثره عند القراءة، ولو أننا بحثنا عن سر هذا النغم لوجدناه يكمن في: حسن اختيار الكلمات، وتجاورها في انسجام وانسيابية، وتآلفها، ويسر النطق بها.

والموسيقى الداخلية في التوقيعات تتشكل من عدة عناصر متشابكة، وبالاتحاد والانسجام والترابط بين هذه العناصر يتحدد شكل الموسيقى، ونوعها، ومقدار تأثيرها.

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية الذي تجلت في توقيعات العصر العباسي الأول: جرس الألفاظ، والإيقاع، والنغم، وموسيقى المقاطع، وكثرة

حروف الهمس(السين، والصاد، والزاي) والتوازن بين الكلمات والعبارات، والتكرار الذي لا يقصد به سوى الموسيقى وجمال الترنم، وكثرة النعوت، والإضافات، والمتعاطفات، كل ذلك يساعد بقوة في إحداث نغم موسيقي داخل النص.

ولنا أن نأخذ مثالًا لذلك بما وقّع به أبو العباس السفاح إلى ساعٍ:

" تقربت إلينا بما باعدك عن الله، ولا ثواب لمن خالف الله"(١١٥)

فبالإنصات إلى صوت الموسيقى الداخلية في هذا التوقيع ، نلحظ أول ما نلحظ أن أبا العباس السفاح قد كرر حرف الباء في توقيعه أربع مرات، وهو بتكراره وترديده بهذا الشكل يعمل على إيجاد نغم موسيقي جذاب يبدو مسيطرًا على التوقيع.

وفي تكرار حرف المد (الألف) في الكلمات (إلينا، بما، باعدك، ولا، ثواب، خالف) وإطالة الصوت فيها، ما يناسب سلوك هذا الساعي الذي سولت له نفسه أن يمد عنقه جانحًا إلى اقتراف هذا السلوك المرفوض دينيًا.

وفي التوقيع أيضا لون من التجاوب الصوتي بين (القاف) في الفعْل (تقربت) و(الكاف) في الفعْل (باعدك) إذ إنهما يخرجان معًا من أقصى اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، وفي ترتب البعد على القرب مفارقة غريبة، توحي بالنفرة من سلوك هذا الواشي.

ويشيع بين طيات هذا التوقيع لون من الموسيقى الجذابة، الناتجة عن التناسب والتآلف بين بعض الكلمات، أمثال (تقرب، الله، ثواب) وكذا بين

‹باعد، خالف› والكلمات عندما تتآلف وتتآخى تضفي على الكلام سحرًا وجمالًا، وتربط بين أجزائه برباط فني متين .

ولعلك تلحظ أن التوقيع الذي بين أيدينا قد تحقق فيه ما يسمى بتوازن العبارات، حيث بني على عبارتين الأولى منهما : تقربت إلينا بما باعدك عن الله، والثانية: ولا ثواب لمن خالف الله، والروي في الفاصلتين، هو حرف ‹الهاء›، وقد صور بصوته ونغمه: الألم والأنين الذي يترتب علي ما أتى به هذا الساعي من فعل يخالف الدين.

ــ ومن التوقيعات: ما وقّع به المنصور إلى عامله على حمص، وقد جاءه منه كتاب فيه خطأ:

" استبدلْ بكاتبك، وإلا استُبْدل بك"‹١١٦› ويبدو الموقف ــ في هذا التوقيع ــ عنيفًا، إذ يشي- بحرص المنصور الشديد على تقويم أخطاء الكتّاب، وهو ما يبرز حرصه البالغ على المحافظة على سلامة اللغة العربية وشموخها.

وفي النص تبدو الموسيقى الداخلية عالية مجلجلة، ففي فعل الأمر ‹استبدل› يبدو الجرس عاليًا، وهو ما يناسب الرد على الأخطاء، ممن لا يباح له الخطأ، كما أن زيادة الباء في كلمة ‹بكاتبك› تؤكد ضرورة فصل هذا الكاتب، والإضافة في ‹كاتبك› إضافة يراد بها التهكم والإشارة إلى سوء الاختيار، فهو كاتبك أنت لا كاتبي، وهو مثل قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام:" إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ‹١١٧› قالوا: ابنك، ولم

يقولوا: أخانا... وفي تكرار همزه الوصل، والسين، والتاء، وترديدها بهذا الشكل توليد وخلق لنغم موسيقي جذاب داخل التوقيع، ومُساعدة على التوسع في المعنى.

ومن صور الموسيقى الداخلية في هذا التوقيع تكرار حرف الباء خمس مرات، وفي ذلك محاوله لخلق جو موسيقي داخل التوقيع، وإظهار الترنم الذي يسيطر على الأذن بجماله، وتبدو عبارتا التوقيع حاملة بين دفتيها الإيجاز، والدقة، والتوازن، وهو ما يمثل لونًا موسيقيًا جذابًا يسري داخل التوقيع.

وحرف الروي الذي بني عليه التوقيع هو ‹الكاف› وقد جاء في نهاية العبارة الأولى، ثم تكرر في نهاية العبارة الثانية، مجسدًا بذلك لونًا من الإيقاع الداخلي في التوقيع.

ومن جميل التوقيعات أيضاً : ما وقع به المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله:

" لو كان عيسى عاملكم قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش‹١١٨›

.

يبدو هذا التوقيع مغلفًا بظلال من الانفعال والشدة، والموسيقى الداخلية تتشكل فيه تبعًا لذلك، والمهدي ـ هنا ـ دقيق في اختيار الكلمات المناسبة ذات الإيقاع المعبر أمثال: ‹قدناه، يقاد، الجمل، المخشوش› وهذه الكلمات المتآلفة حين تجتمع بهذه الصورة، تُحدث لونًا من الانسجام الموسيقي في

الكلام، وكلمة المخشوش وإن بدت غريبة إلا أنها دقيقة في اختيارها؛ لأن الجمل المخشوش يقاد مرغمًا ومقهورًا، وهو ما رغب المهدي في الإشارة إليه.

وفي التوقيع تكرار لحرف ‹القاف› ثلاث مرات، ولحرف ‹الكاف› كذلك، ولحرف الميم أربع مرات، وهذا التكرار والترديد عمل على إيجاد تناغم موسيقي جاذب ولافت سيطر على التوقيع.

والتوقيع في النهاية يُلقي بظلال صاخبة من الانفعال والشدة التي تتلاءم مع الفكرة التي كانت سببًا في إنشائه، وقد وظفت عناصره الفنية في إطار متلاحم، فبدت كأنها خلية متعاونة الأفراد، يهدف كل منها إلى الوصول بالتوقيع إلى مكانة فنية عالية.

ومن خلال ما تقدم، نرى أن فن التوقيعات في العصر العباسي الأول، قد زاحم الشعر في أخص خصائصه، وهي الموسيقى، وإن كانت تأخذ في التوقيعات شكلًا آخر يقوم على توظيف الأصباغ البديعية باعتبارها شكلًا موسيقيًا خارجيًا، ثم تأتي الموسيقى الداخلية التي تنبع من التوافق الموسيقي بين الألفاظ ودلالتها، أو بين الكلمات وبعضها، كل ذلك من خلال الاستلهام من واقع البيئة العباسية، ذات الخيال الخصب، والثقافة الواسعة، والحرية الفكرية الواعية.

هوامش المبحث الثالث

١)راجع : اتجاهات النقد الأدبي العربي ، د/ محمد السعدي فرهود / ١١٣ ، طبعة ١٩٧١م .

٢) راجع : مفهوم الشعر ، د/ جابر عصفور / ١٦٢ ، طبعة دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨م .

٣) يراجع : في النص الشعري الحديث ، د/ محمد أحمد العزب / ١٦٣ ، بلاد الأندلس للكمبيوتر المنصورة، ٢٠٠٠م

٤) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٦٨ .

٥) السابق ، جـ٤ ، ٣٧٢ .

٦) السابق ، جـ٤ / ٣٧٤ .

٧) ينظر: المصباح في المعاني و البيان والبديع ، ابن الناظم ، تحقيق : د/ حسني عبد الجليل يوسف/ ٢٤٩.

٨) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٢.

٩) البعير المخشوش : هو الذي يوضع في لحم أنفه عود لينقاد بيسر ، والخشاش بالكسر : هو العود أو الخشبة التي تدخل في أنف البعير ‹اللسان ، مادة : خشش› .

١٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٤ .

١١)في النص الشعري الحديث، د/ محمد العزب / ١٦٣، طبعة دار المعارف ١٩٨٠بتصرف يسير .

١٢)جمهرة رسائل العرب جـ٤/ ٣٨٤

١٣)دراسات منهجية في علم البديع ، د/ الشحات أبو ستيت / ١٩٧ ، الطبعة الأولى ، دار خفاجي للطباعة والنشر ، كفر شبين ، قليوبية ١٩٩٤م .

١٤)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٠ .

١٥)السابق ، جـ٤ / ٣٨٦ .

١٦)أحد الخارجين على نظام الدولة العباسية .

١٧)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٣ .

١٨)يراجع السابق ، جـ٤ / ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ وغيرها .

١٩)السابق ، جـ٤ ٣٧٢ .

٢٠)السابق جـ٤ / ٣٧٦ .

٢١)يراجع : لسان العرب ، مادة بطن .

٢٢)السابق ، جـ٤ / ٣٨٠ .

٢٣)للمزيد من الشواهد : يراجع جمهرة أشعار العرب ،جـ٤ / ٣٧٤ ، ٣٧٨ ،٣٨٥ ، ٣٨٨ .

٢٤)الغزل عند شعراء الأزهر في العصر الحديث ، د/ محمد محمد بظاظو / ٢٤٤ ، رسالة دكتوراة مخطوطة في كلية اللغة العربية في إيتاي البارود .

٢٥)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٢ .
٢٦)ينظر : اللسان ، جـ٦ / ٢٩٦ وما بعدها مادة خش .
٢٧)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٥ .
٢٨)اللسان و جـ٢ / ص١٦ ، مادة بيت .
٢٩)سورة النساء ، من الآية ٨١ .
٣٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٠ .
٣١)يراجع :جمهرة رسائل العرب ،جـ٤ / ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ،٣٨١ ، ٣٨٨ .
٣٢)البلاغة والنقد ، د/ مهدي علام و آخرين ، جـ٢ / ١٦٦ ، طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٥٨م .
٣٣)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٦٩ .
٣٤)السابق ، جـ٤ / ٣٧٢ .
٣٥)السابق ، جـ٤ / ٣٧٤ .
٣٦)السابق ، جـ٤ / ٣٧٤ .
٣٧)عمرو بن مسعدة كان موقعا بين يدي جعفر البرمكي ، وكان فصيحاَ ، قوى الحجة ، توفي سنة ٢١٧هـ (الأعلام ، الزركلي ، جـ٥ / ٨٦ ، ط١٥ ، دار العلم للملايين) .
٣٨)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨١ .

٣٩)هو هرثمة بن أعين ، من قادة الدولة العباسية ، ولاه هارون الرشيد مصر عام ١٧٨ه ، وكان خادماً للمأموم ، ولكن الفضل بن سهل غير نفس المأمون عليه حتى حبسه ثم دس إليه الفضل من قتله في الحبس سراً بـــ " مرو " عام ٢٠٠ه(ينظر: الاعلام، للزركلي ، جـ٨ / ٨١)

٤٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤ / ٢٨٨ .

٤١)ينظر : جمهرة رسائل العرب ، حـ٤ / ٣٦٧ ، ٣٧٠،٣٧٣، ٣٧٥،٣٧٨،٣٧٩،٣٨٤،٣٨٥،٣٨٦،٣٨٨.

٤٢) السابق ، جـ٤ / ٣٧٠ .

٤٣) السابق جـ٤/ ٣٧٣.

٤٤) السابق ، جـ ٤ / ٣٧٦ .

٤٥) هو محمد بن أحمد بن حميد الطوسي ، من قواد الخليفة المأمون ، استعان به في مقاتلة الخارجين عليه ، مات مقتولاً عام ٢١٤هـ(الأعلام ، الزركلي ، جـ٢ / ٢٨٣) .

٤٦) جمهرة رسائل العرب ، جـ ٤/ ٣٧٨

٤٧) السابق ، جـ٤/ ٣٨٣.

٤٨) السابق ، جـ٤/ ٣٨٧.

٤٩) السابق ، جـ٤/

٣٦٨،٣٦٩،٣٧٤،٣٧٥،٣٧٨،٣٨٠،٣٨٣،٣٨٥،٣٨٧،٣٨٨.

٥٠) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٢ .
٥١) السابق ، جـ٤ / ٣٨٥ .
٥٢) اللسان ، جـ١٥ / ٣٧٩ ، مادة وجا .
٥٣) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٣
٥٤) السابق ، جـ٤ / ٣٧٤ .
٥٥)السابق ،جـ٤ / ٣٧٠ .
٥٦) السابق ، جـ٤ / ٣٧٤ .
٥٧) السابق ، جـ٤ / ٣٧٤.
٥٨) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ .
٥٩)السابق ، جـ٤ / ٣٦٩ .
٦٠)السابق ، جـ٤ / ٣٧٢ .
٦١)السابق ، جـ٤ / ٣٧٦ .
٦٢)السابق ، جـ٤ / ٣٧٨ .
٦٣)السابق ، جـ٤ / ٣٨٠ .
٦٤)السابق ، جـ٤ / ٣٨٨ .
٦٥)السابق ، جـ٤ / ٣٦٧ ، والآية من سورة الكهف / ٥١
٦٦)السابق ، جـ٤ / ٣٦٩ .

٦٧)ينظر : مسند البزار، تحقيق د. محفوظ الرحمن زين، وغيره، طبع مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨ م- ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م.

٦٨)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٨ .

٦٩)سورة المؤمنون : آية / ١٠١ .

٧٠)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٤ .

٧١)سورة الرعد ، من الآية / ٣٨ .

٧٢)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٨٤ .

٧٣)ينظر شواهد أخرى في: جمهرة رسائل العرب، جـ٤ / ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٧٨، ٣٨١، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٨٤ .

٧٤)السابق، جـ٤ / ٣٧٤ .

٧٥)هو ثابت بن يحي بن إسار، أبو عباد الرازي، كاتب المأمون، وكان يصحبه في سفره وحضره (ينظر: الأعلام ، جـ١ / ٢١٧) .

٧٦)جمهرة رسائل العرب، جـ٤ / ٣٧٨ .

٧٧)هو أبو إسحاق إبراهيم بن الخليفة المهدي ، أخو هارون الرشيد ، توفي عام ٢٢٤هـ .

٧٨)جمهرة رسائل العرب، جـ٤ / ٣٨٠ .

٧٩)مسند الشهاب للقضاعي، تحقيق حمدي السلفي، طبع مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٨٠)جمهرة رسائل العرب، جـ٤ / ٣٨٤ .
٨١)السابق، جـ٤ / ٣٨٨ .
٨٢)ينظر : صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، جـ٤ / ٢٠٠٤ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .
٨٣)ديوان الحطيئة ، شرح أبي الحسن السكري / ٥٤ ، مطبعة التقدم بمصر .
٨٤)ديوان جرير، شرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد طه / ٨٢١ ، ط ٣ دار المعارف .
٨٥)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٠ .
٨٦)السابق، جـ٤ / ٣٧٤ .
٨٧)السابق، جـ٤ / ٣٧٤ .
٨٨)السابق، جـ٤ / ٣٧٤.
٨٩)ينظر: شواهد أخرى في: جمهرة رسائل العرب، جـ٤ / ٣٧٠، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٨٥، ٣٨٨ .
٩٠)الهجاء الجاهلي ، د/ عباس عجلان / ٢٨٨ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٢م .
٩١)جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٦٨ .
٩٢)السابق ، جـ٤ / ٣٧٥ .
٩٣)السابق ، جـ٤ / ٣٨٠ .

٩٤)السابق ، جـ٤ / ٣٧٢ .

٩٥)السابق ، جـ٤ / ٣٧٦ .

٩٦)السابق ، جـ٤ / ٣٨٩ .

٩٧)يراجع شواهد أخرى في : جمهرة رسائل العرب ، جـ٤ / ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠

٩٨)دراسات منهجية في علم البديع ، د/ الشحات أبو ستيت / ١٠١٠

٩٩)النثر الفني في عصر الموحدين، د/ رضا عبد الغني الكساسبة / ٢٣٢ وما بعدها، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠٤م، بتصرف.

١٠٠) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٠ .

١٠١) السابق ، جـ٤/ ٣٨٤.

١٠٢) السابق ، جـ٤/ ٣٧٦.

١٠٣) السابق جـ ٤/ ٣٨٨

١٠٤) دراسات منهجية في علم البديع/ ١٩٧ ٠

١٠٥) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٢٨٠ .

١٠٦) السابق ، جـ٤/ ٣٨١.

١٠٧) السابق ، جـ٤/ ٣٨٤.

١٠٨) السابق ، جـ٤/ ٣٨٨.

١٠٩) دراسات منهجية في علم البديع/ ٥٣ ٠
١١٠) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٢٨٠ .
١١١) السابق ، جـ٤/ ٣٧٢.
١١٢) السابق ، جـ٤/ ٣٧٤.
١١٣) السابق ، جـ٤/ ٣٨٤.
١١٤) السابق ، جـ٤/ ٣٨٤.
١١٥) النقد الأدبي / د ٠ شوقي ضيف / ٩٧ ، ط ١٥ ، دار المعارف ، مصر ٠
١١٦) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٦٨.
١١٧) السابق ، جـ٤/ ٣٧٠.
١١٨) سورة يوسف ، من الآية :٨١
١١٩) جمهرة رسائل العرب ، جـ٤/ ٣٧٢.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، يعلم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن ، وكل شيء عنده بمقدار .

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، النبي الأمي العربي الكريم ، وعلى آله وصحابته ، نجوم الهداية وأعلام الرشاد .

أما بعد :

فقد عرضنا خلال ما تقدم من صفحات هذا البحث ، لفن التوقيعات الأدبية ،في العصر العباسي الأول وذكرنا أنها بدأت في عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) بسبب انتشار فن الكتابة ، والعناية بها أكثر من ذي قبل ، ثم بدأت تتطور أكثر فيما وليه من عهود ، حتى بلغت قمة التألق والازدهار في العصر العباسي الأول ، وتضمنت عديدا من الاتجاهات الموضوعية والفنية .

ويمكننا –هنا –أن نسجل أهم النتائج التي انتهي إليها البحث وهي كالآتي:

أولا : أن التوقيع فن أدبي نثري ، له مذاقه وخصوصيته واستقلاله .

ثانيا : أن التوقيعات الأدبية لم تعرف في العصر الجاهلي ؛ لعدم انتشار الكتابة بينهم ، وكذا في صدر الإسلام ؛ لقلة من يجيدون الكتابة أيضا .

ثالثا : أن التوقيعات فن عربي خالص نشأ في رحاب الإسلام ، وما ذهب إليه بعض الباحثين من القول بفارسيته غير صحيح .

رابعا : أن التوقيعات الأدبية لم تقتصر على الأدباء ، بل تعدتهم إلى الوزراء والقواد ، والكتاب الموهوبين .

خامسا : لابد لصاحب التوقيع (الموقِّع) أن يكون موسوما بالفصاحة والبلاغة ، والمروءة وقوة الحجة .

سادسا : ليس من الضروري أن يكون التوقيع الأدبي ابتكارا من صاحبه ،ولكنه قد يكون آية من القرآن الكريم ، أو حديثا نبويا ، أو بيتا من الشعر ، أو حكمة بالغة ، أو مثلا سائرا ، أو قولا بليغا .

سابعا : مثل فن التوقيعات في العصر العباسي الأول ثروة عظيمة في المشاركة في بناء الدولة ، وفي توجيه سياستها إلى الرعية ، كما أنها أفادت التاريخ ، وأغنته بكلمات ، وعبارات ، وأقوال غاية في البلاغة والإيجاز ؛ وذلك لارتباطه منذ نشأته بدواوين الخلفاء والوزراء .

ثامنا : أفاد الأدب العربي من فن التوقيعات إفادة كبيرة ، وقد تجلى ذلك في : ظفره بطائفة كبيرة من التعبيرات الأدبية اللطيفة الراقية ، التي صدرت عن أصحابها بعد فكر وجهد جهيد ، مما جعلها تستحق ـ بجدارة ـ أن تضاف إلى ما أثر عن العرب من حكم وأمثال ، وأقوال بليغة ، هي آية في الروعة ، وآية في الإعجاز الفني الذي يحتذى به .

تاسعا : نأسف كثيرا وتضيع منا الكلمات حين نبحث عن فن التوقيعات في حياتنا ، فنكتشف أنه قد ضاع واندثر ، واختفي تماما ، وكأنه ما كان ، ولا كانت له صولة ولا دولة ، ولا رجال يشار إليهم بالبنان .

ومن هنا فنحن نوصي بجمع التوقيعات في شتى العصور الأدبية ، وتوجيه الباحثين إلى دراستها من زوايا وجوانب عديدة ، يمكن الاهتداء إلى بعضها من خلال الرجوع إلى الدراسة الموضوعية من هذا البحث .

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الأطهار ﷺ

أهم المصادر والمراجع [١]

١- القرآن الكريم " تنزيل من رب العالمين "[٢]
٢- أُسد الغابة في معرفة الصحابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا ، محمد أحمد عاشور، ومحمود عبدالوهاب فايد، دار الشعب القاهرة
٣- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٢م
٤- أعلام النساء في عالميّ العرب والإسلام، تأليف: عمر كحالة، الطبعة الرابعة، مؤسسة رسالة بيروت ١٩٨٢م ٠
٥- الاقتضاب في شرح الكتاب، لأبي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق
أ / مصطفي السقا. ود/ حامد عبد المجيد مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٦م
٦- بديع الزمان الهمذاني، د/ مصطفي الشكعة ، الطبعة الأولى، مطبعة القاهرة الحديثة ١٩٥٩م
٧ـ اتجاهات النقد الأدبي العربي، د/ محمد السعدي فرهود، طبعة ١٩٧١م .

---

١ – روعي في ذكر المصادر والمراجع الترتيب الأبجدي مع إغفال أداة التعريف (أل).

٢ – سورة الحاقة آية :٤٣.

٨- تاريخ الأدب العربي، (العصر العباسي الأول) د/ شوقي ضيف، الطبعة السابعة عشر، دار المعارف ١٩٦٦م.
٩- التوقيعات الأدبية فن إسلامي خالص، بقلم الأستاذ: صلاح عبدالستار محمد الشهاوي، من الموقع الإلكتروني للجامعة الإسلامية، بالهند ٢٠١٠م.
١٠- تحفة الوزراء، المنسوب إلى أبي منصور الثعالبي، الطبعة الأولى، مطبعة العاني- بغداد ١٩٧٧م.
١١- تاريخ الأمم والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ
١٢- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية – بيروت لبنان ١٩٢٧م
١٣- ديون أبي نواس، دار صادر –بيروت – لبنان ٢٠٠٨م
١٤- دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، الطبعة الأولى دار خفاجي للطباعة والنشر، قليوبية ١٩٩٤م.
١٥- زهر الأكم في الأمثال والحكم، أبو علي نور الدين الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، تحقيق د/ محمد حجر، د/ محمد الأخضر، الطبعة الأولى دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب ١٩٨١م.
١٦- شرح ديوان جرير بن عطية، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت (بدون ت)

١٧- صبح الأعشى، في صناعة الإنشا، للشيخ أبى العباس أحمد القلقشندي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٢م .
١٨- العقد الفريد ، لأحمد بن عبدربه الأندلسي ، تقديم وتعليق د/ أحمد يسري العزباوي ، الطبعة الأولى ، دار الإمام علي للطباعة والنشر ، المعادي الجديدة ، القاهرة ١٩٩٢م .
١٩ ـ الغزل عند شعراء الأزهر في العصر الحديث ، د/ محمد محمد بظاظو ، رسالة دكتوراة مخطوطة في كلية اللغة العربية في إيتاي البارود .
٢٠- فتوح البلدان ، لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذُّري ،راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان مطبعة السعادة ، مصر ١٩٥٩م .
٢١ ـ في النص الشعري الحديث ، د/ محمد أحمد العزب / بلاد الأندلس للكمبيوتر ، المنصورة ٢٠٠٠م .
٢٢- كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، تحقيق : محمد علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٠٥م.
٢٣- كتاب نقد الثر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت٣٣٧) حققه وعلق عليه

د/ طه حسين ، وعبدالحميد العبادي ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية – القاهرة ١٩٣٩م.

٢٤- لطائف اللطف ،لأبي منصور عبدالملك بن محمد النيسابوري الثعالبي (ت٤٢٩ه) تحقيق عمر الأسعد ، الطبقة الثانية ،دار المسيرة –بيروت ١٩٨٧م.

٢٥- لسان العرب ،للعلامة أبي الفضل جمال الدين مجمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

٢٦ - مقدمة ابن خلدون ، تأليف / عبد الرحمن محمد بن خلدون تحقيق / مجدي فتحي السيد ، دار التوفيقية للتراث ، درب الأتراك ، خلف الجامع الأزهر – القاهرة ٢٠١٠م.

٢٧- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية د/ نصر الدين الأسد، الطبقة الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م .

٢٨ ـ المصباح في المعاني والبيان والبديع ، ابن الناظم ، تحقيق : حسني عبد الجليل يوسف .

٣٩ ـ مفهوم الشعر ، د/ جابر عصفور ، طبعة دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨م .

٣٣- نثر الدّر ، لأبي سعد بن منصور بن الحسين الآبي(ت٤٢١ه) ، الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتب ١٩٨١_١٩٩٠م .

٣١ ـ النثر الفني في عصر الموحدين، د/ رضا عبد الغني الكساسبة ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠٤ .
٣٢ ـ النقد الأدبي ، د/ شوقي ضيف ، طبعة دار المعارف بمصر
٣٣ ـ الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية ، د/ عباس عجلان ، طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .
٣٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان البرمكي الإربلي (ت٦٨١ه)، تحقيق / إحسان عباس ، الطبعة الأولى – دار صادر بيروت .
٣٥- الوزراء والكتاب ، لأبي عبدالله محمد بن عبدوس الجهشياري (ت٣٣١ه) ، قدم له د/ حسن الزين ، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر –بيروت لبنان ١٩٨٨م.
٣٦- مجلة جامعة أم القرى السعودية ، المجلد١٣ ، العدد:٢٢ فبراير ٢٠٠٨م .
٣٧- مجلة الوعي الإسلامي ، العدد ٥٣٢ ، سبتمبر٢٠١٠م .

فهـرس الموضوعـات

الصفحة	الموضـــــوع
	المقدمة
	الملخص بالعربي
	الملخص بالإنجليزي
	المبحث الأول التوقيعات الأدبية ... النشأة والتطور
	أولا: نشأة التوقيعات الأدبية ، وتأكيد صلتها بالعربية
	١ – التوقيعات وصلتها بالكتابة العربية
	٢ –أصالة فن التوقيعات في العربية
	ثانيا : التوقيعات الأدبية المفهوم وتطور الدلالة
	١ – المفهوم اللغوي للكلمة
	٢ – المفهوم الاصطلاحي للكلمة
	٣– تطور دلالة الكلمة
	ثالثا : مصادر التوقيعات الأدبية وأنواعها ومواصفاتها
	١ – مصادر التوقيعات الأدبية في التراث العربي
	٢ – أنواع التوقيعات

٣ـ مواصفات الموقع والتوقيع هوامش المبحث الأول المبحث الثاني التوقيعات الأدبية ... وإرهاصات الشموخ والتألق . أولا : التوقيعات الأدبية في عصري صدر الإسلام والأموي .. وبداية الانطلاق. ١ – التوقيعات في عصر صدر الإسلام ٢ – نماذج من التوقيعات في عصر صدر الإسلام ٣– التوقيعات في العصر الأموي ٤ – نماذج من التوقيعات في العصر الأموي ثانيا : التوقيعات الأدبية في العصر العباسي الأول وذروة الشموخ والتألق ثالثا : توقيعات العصر العباسي الأول ... واتجاهاتها الموضوعية أولا: الدعوة إلى مكارم الأخلاق	

١- إكرام ذوي الفضل ٢- الترفق بالضعفاء وإغاثة الملهوفين ٣- الدعوة إلى الاقتصاد ومجافاة الإسراف . ٤- التلطف في الحوار مع الآخرين ٥- الوعظ والإرشاد ثانيا : تأديب المخالفين والمفسدين ١- التنبيه المزلزل إلى الهفوات ٢- الوقوف في وجه المعتدين والأشرار والتضييق عليهم ٣- تأديب المخالفين وكسر شوكتهم ثالثا : التأكيد على إعلاء قيمة الحق والعدل ١- المحافظة على مبدأ الحق والعدل ٢- اتباع أسلوب المكاشفة هوامش المبحث الثاني المبحث الثالث : التصوير الفني في توقيعات العصر العباسي الأول ..	

أولا : فنية الألفاظ ‹أ› التوقيع من خلال توظيف عناصر التناسب ١ـ الطباق ٢ـ مراعاة النظير ‹ب› التوقيع من خلال توظيف عناصر التخييل والإيهام ١ـ الجناس ٢ـ التورية ‹جـ› النزوع إلى التراث ‹ء› اليسر والوضوح ثانيا : فنية العبارات ١ـ التعبير الخبري ٢ـ التعبير الإنشائي ٣ـ التصوير البياني ‹أ› التصوير عن طريق التشبيه ‹ب› التصوير عن طريق الاستعارة	

(جـ) التصوير عن طريق الكناية ٤ـ الاستقاء من التراث ٥ـ شيوع الحكمة السمات العامة لأسلوب التوقيعات في العصر العباسي الأول ١ـ شيوع صيغ الأمر الحادة ٢ـ أسلوب المقارنة الحادة ٣ـ أسلوب المبالغة والتزيد ثالثا : موسيقى التوقيعات أولا : الموسيقى الخارجية (الظاهرة) وعناصرها ١ـ السجع ٢ـ الجناس ٣ـ المقابلة ثانيا : الموسيقى الداخلية (الخفية) هوامش المبحث الثالث	

الخاتمة أهم المصادر والمراجع فـــهرس	